سمير الصالحين

تأليف

أبي الفضل

عبد الله محمد الصديق الحسني

عفا الله عنه

عليه تعليقات لمؤلفه

الطبعة الأولى

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

حق الطبع محفوظ للناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها : علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية : ميدان الأزهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا سَمـــيرُ الصالحين مؤلَّفاً
يُهــــدى إلى القرّاء خَيْرَ هديةٍ

قَصَصٌ يُفيــد السامعين سِيَاقُها
خُلُقــاً وآداباً وأَحسَنَ عِـــبْرَةِ

أَقْبِــلْ عليها واستَفِدْ من لَفْظِها
حِكَماً وأحكاماً لِخَـــيْرِ شَريعةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل المرسلين . سيدنا محمد الصادق الأمين . ورضى الله عن آله الطاهرين . وصحابته والتابعين . وبعد : فهذه بضع قصص دينية ، فيها عظات وعبرة وفيها فوائد وأحكام ، وفيها حض على الأخلاق الحميدة ، والآداب العالية . طرزت بآيات من الكتاب الكريم، ووشيت بمعجزات من نبينا العظيم . من قرأها زاد إيمانه ، وقوى يقينه . وأعرض عن المعاصى وأسبابها ، وأقبل يطلب الطاعات من أبوابها . لما يرى فيها من فضل الله على المتقين الصادقين ، ومن غضبه على العاصين الفاسقين .

وسنتبعها بأمثالها إن شاء الله تعالى ، على هـذا الأسلوب السهل الذى لا يستعصى على عامة القراء . ليعم النفع بها ، وتحصل منها الفائدة المرجوة . والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ، ويوفقنا إلى ما فيه رضاه ، إنه سميع مجيب .

١ — (بناء البيت)

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : جاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأم إسماعيل ، وبابنها إسماعيل — وهى ترضعه — حتى وضعها عند البيت . عند دوحة فوق زمزم ، فى أعلى المسجد . وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضعها هناك ، ووضع عندها جرابا ، فيه تمر . وسقاء ، فيه ماء . ثم قفى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل .

فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وهو لا يلتفت إليها . قالت له : آلله أمرك

بهذا ؟ قال: نعم. قالت: إذن[1] لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه. استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، فرفع يديه فقال: (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء. حتى إذا نفد ما فى السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلبط. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها. فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحدا. فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى. رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها. تنظر هل ترى أحداً ؟ ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه وسلم « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتا. فقالت: صه، تريد نفسها. ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث، فأغث. فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء. فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف الماء فى سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. وفى رواية: بقدر ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه وسلم: « رحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم — أو قال — لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معينا » قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها

---

[1] إذن هنا ناصبة للفعل بعدها.

الملك : لا تخافو الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله . فكانت كذلك ، حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، و هل بيت من جرهم ، مقبلين من كداء . فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً . فقالو : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين ، فإذا هم بالماء . فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت: نعم ، ولكن لاحق لكم فى الماء قالوا : نعم. قال بن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس » فنزلوا ، فأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم . حتى إذا كانوا أهل أبيات ، وشب الغلام . وتعلم العربية منهم وأنفسهم ، وأعجبهم حين شب . فلما أدرك ، زوجوه امرأة منهم . وماتت أم اسماعيل ، فجاء إبراهيم — بعد ما تزوج إسماعيل — يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل . فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا ، وفى رواية : يصيد لنا : ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت . نحن بشر ، نحن فى ضيق وشده ، وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام وقولى له : يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل ، كأنه آنس شيئاً . فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا . فسألنا عنك ، فأخبرته فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، ألحقى بأهلك . فطلقها ، وتزوج منهم أخرى . فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده . فدخل على امرأته ، فسأل عنه . قالت : خرج يبتغى لنا . قال كيف أنتم ؟ وسألها عن

عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبى صلى الله عليه وسلم « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه — قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » قال إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل ، قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه . فسألنى عنك ، فأخبرته . فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة ، قريباً من زمزم . فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد ، بالولد ، والولد بالوالد .

قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . فقال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : إن الله أمرنى أن أبنى بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى . حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر ، فوضعه له . فقام يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة . وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) رواه البخارى فى الصحيح.

(بيان المفردات)

دوحة ، بفتح الدال وسكون الواو : شجرة عظيمة . جراب ، بكسر

الجيم : مايحمل فيه المسافر زاده من الطعام ، وهو أيضاً المزود ، بكسر الميم وسكون الزاى وفتح الواو . سقاء ، بكسر السين : إناء يكون للبن والماء ولذلك قيده بقوله : فيه ماء . بخلاف القربه فإنها للماء فقط . قفى ، بتشديد الفاء : ولى ورجع . الثنية ، بفتح المثلثة وكسر النون : مكان بمكة . نفد ، بكسر الفاء ، وبالدال المهملة . فنى وانتهى . درعها : قميصها ، وهو بكسر الدال .

المجهود : الجائع وفعله جهد ، بضم الجيم وكسر الهاء : إذا شق عليه الجوع أو التعب . صه ، بفتح الصاد : إسم فعل ، معناه اسكت . غواث ، بضم الغين المعجمة ، وفتحها ، : إغاثة . تحوضه ، بضم الحاء المهملة : تجعل حوله حوضاً ، يمنع سيلانه على الأرض . الرابية والربوة ، مثلثة الراء ، والرباوة بفتح الراء : الشيء المرتفع . كداء ، بفتح الكاف والمد ، والتنوين : مكان بأعلى مكة . جريا ، بفتح الجيم وكسر الراء : رسولا ، ألفى ، بفتح الفاء : وجد .

(المعـــنى)

لما ولدت هاجر إسماعيل عليهما السلام ، غارت منها سارة ، لأنها كانت عقيما لم تلد[1] . فقالت لإبراهيم : لا يجمعنى وإياها بيت . فأمره الله

(١) الغيرة طبيعة فى المرأة ، وإن علا قدرها فى العلم والدين . صح عن عائشة رضى الله عنها : أنها قالت : لقد غرت من خديجة رضى الله عنها وما رأيتها . وذلك لكثرة ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يذكرها . ثم أن المرأة المتزوجة تحب أن تنجب أولاداً يملئون بيتها بهجة وسعادة ، لا سيما إذا كان زوجها مثل إبراهيم عليه السلام. فغيرة سارة ــ مع كونها طبيعية ــ غيرة محمودة . لأنها كانت تود من صميم قلبها أن تحظى بشرف الإنجاب من الخليل . ورأت أن هاجر حظيت بهذا الشرف دونها . ولهذا بشرها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، ليذهب من نفسها نار الغيرة ، وعقدة العقم . فمن نفى عنها حكاية الغيرة ، أخطأ من جهة تكذيبه للحديث الصحيح ، ومن جهة عدم فهمه لطبيعة المرأة .

بإسكانها فى الحجاز ، لما ترتب على ذلك من مصالح كبرى . فسافر بها وبابنها إلى مكة ، فوضعهما بجانب المكان الذى بنيت فيه الكعبة ، وولى راجعاً إلى الشام ، بعد أن أمرها أن تتخذ لها ولابنها عريشاً ، يقيهما الحر والبرد فتبعته هاجر تسأله كيف يتركها وإبنها فى بلد ليس به أنيس ؟ ولم يلتفت إليها ، لأنه خشى أن ينظر إلى ابنه الوحيد ، فتغلب عليه عاطفة الأبوة ، فيضعف عن تنفيذ ما أمر به . لكنها عادت تسأله : آلله أمرك بهذا ؟ لأنها أدركت مما عرفته من خلق إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وشدة عطفه ورحمته أنه لم يكن ليتركها ووحيده منها ، فى ذلك المكان القفر ، إلا بأمر الله تعالى وإذنه .

فلما رد عليها بالإيجاب ، قالت : إذن لا يضيعنا . وهذا يدل على قوة إيمانها ، وشدة يقينها . ثم رجعت إلى مكانها عند الدوحة ، أما إبراهيم فوصل إلى الثنية وهى طريق العقبة ، واستقبل البيت يدعو (ربنا إنى أسكنت من ذريتى) أى بعض[1] ذريتى ، لأنه ولد له بعد ذلك إسحق بالشام . وقوله (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى تميل إليهم لحج بيتك الحرام ، دعاء بأن يكثر زوار البيت وقصاده . وفى كثرتهم فوائد مادية وأدبية ، تعود على ذريته المقيمين به . مكثت هاجر فى مكانها تحت الدوحة ، تستظل بأغصانها . ترضع ولدها ، وتحوطه بعطفها وحنانها . حتى إذا فنى ما عندها من الزاد والماء ، لم تطق أن ترى ابنها يتلوى من ألم الجوع ، وقد نضب ما فى ثديها من غذاء . فذهبت إلى الصفا ، تنظر لعلها تجد شيئاً يغذيها ، أو شخصاً يسعفها . فسمت أى مشت

(١) تعبيره بمن المفيدة للتبعيض ، يشعر بأنه كان عنده إحساس بأن سيولد له غير إسماعيل .

مسرعة بين الصفا والمروة، شوطاً أو شوطين ، فلم تر أحداً. فقالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي ؟ فوجدته كأنه ينشغ للموت ، أى يشهق شهيق الموت. فلم تقرها نفسها ، فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحداً . فذهبت إلى الصفا ، فنظرت و نظرت ، فلم تحس أحداً . فرفعت طرف قميصها ليساعدها على الإسراع فى المشى ، وسعت بين الصفا والمروة ، وهى تنظر وتتسمع ، فسمعت كأن صوتاً يناديها ، فلم تتنبه . فقالت لنفسها : صه أى اسكت ، مبالغة فى الاهتمام ، لكنها لم تسمع ثانية . ثم عادت إلى ابنها ، فسمعت ذلك الصوت أيضاً . فقالت لصاحب الصوت الذى لم تره : لقد أسمعت، فإن كان عندك غوث ، فأغث : فظهر لها الملك ، وهو جبريل عليه السلام ، كما يثبت فى رواية للبخارى أيضاً . فبحث برجله ، أو بجناحه الأرض ، فظهر الماء . فجعلت تغرف منه ، وهو ماء زمزم . وقد جعله الله طعام طعم ، وشفاء سقم، كما فى الصحيح [1] . ولذلك كفى هاجر من الطعام ، ثم قال لها جبريل : لا تخافوا الضيعة ، فإن فى هذا المكان بيتاً لله —هى الكعبة— يبنيه هذا الرضيع ، وأبوه إبراهيم عليهما السلام . وهما من أهل الله ، يبنيان بيت الله والله لا يضيع أهله . لما ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل عند البيت ، كان يزورهما الفينة بعد الفينة ، ويتعاهدهما بما يحتاجان إليه من كساء ونحوه . وفى إحدى هذه الزيارات ، قال لابنه إسماعيل — وكان عمره اثنتى عشرة سنة تقريباً — يابنى خذ المدية والحبل ، وانطلق بنا إلى هذا الشعب ، لحاجة لنا فيه . فذهبا ، وتعرض إبليس لإبراهيم ، فسأله : أين تريد أيها الشيخ ؟ فأجابه : إلى هذا الجبل ، لحاجة لى فيه . قال إبليس : بل أنت تريد ذبح

---

(١) وفى حديث صحيح (ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفى شفاك الله وإن شربته لقطع ظمأك قطعه الله) .

ابنك ، لأنك تزعم أن الله أمرك بذلك . قال إبراهيم : إذهب ياعدو الله ، فوالله لأمضين لأمر الله . ورجمه بسبع حصيات يئس منه إبليس ، وذهب إلى إسماعيل ، وسأله : هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لحاجة فى هذا الشعب . قال إبليس : أنه يريد أن يذبحك . قال إسماعيل : ولم يذبحنى ؟ قال إبليس : يزعم أن الله أمره بذلك . قال إسماعيل : فليفعل ما أمره به الله ، ورماه بسبع حصيات. فتركه وذهب إلى هاجر ، وسألها : أين ذهب إبراهيم بابنه؟ قالت : ذهب به لحاجة . قال : إنه ذهب به ليذبحه . قالت : ولم يذبحه وهو ابنه الوحيد ، وأحب الناس إليه ؟ قال : يزعم أن الله أمره بذلك . قالت : فليفعل ما أمره الله به ، ورمته بسبع حصيات أيضاً . فصار رمى الجمار من شعائر الحج . وصل إبراهيم إلى الجبل ، وقال لإسماعيل (يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟) ورؤيا الأنبياء وحى ، لأن النبى تنام عيناه ، قلبه فى يقظة ، لايغفل عن الله لحظة . فأجابه إسماعيل بقلب ثابت ، وإيمان راسخ : (يا أبت افعل ما تؤمر [1] ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ياأبت شد رباطى ، لا يصبك منى شىء . وأحد شفرتك ، حتى تجهز على فتريحنى . وإذا أضجعتنى لتذبحنى ، فكبنى على وجهى . ولاتضجعنى لجنبى ، فإنك إذا رأيت وجهى ، أدركتك رأفة ، حالت بينك وبين تنفيذ ما أمرك الله به . ففعل ما اقترحه عليه ابنه ، وإذا بجبريل عليه السلام يناديه . (قد صدقت الرؤيا)،وأتاه بكبش عظيم — هو الكبش الذى قربه هابيل — فذبحه فداء عن ابنه ، وصارت الضحية شعيرة من شعائر الإسلام . (فلما أسلما وتله)

---

(١) هذا دليل على أن رؤيا النبى وحى من الله تعالى . وقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذه القصة: كانت المنامات عند الصالحين من عباد الله، بمثابة الوحى والأمر المباشر. غير صحيح بالنسبة للأنبياء ، فإن رؤياهم وحى كما تقرر فى الأصول .

صرعه (للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم) [(١)] واختلفت العلماء هل أمر الشفرة على ابنه ولم تقطع ؟ أو لم يمرها ؟ ظاهر الآية ، يفيد الثانى . وفى الآية دليل على جواز نسخ الفرض قبل فعله . ثم رجع إبراهيم إلى الشام ، ومكثت هاجر ترعى إسماعيل وتحوطه بعنايتها . حتى مرت بهم جماعة من جرهم ، ونزلوا فى طريق أسفل مكة . فرأوا طيراً عائفاً أى طالباً للماء . فقالوا : إن هذا الطير يدور على الماء ، وعهدنا بهذا الوادى ليس فيه ماء وبعثوا رسولا ينظر هل يجد ماء ؟ فأشرف على أبى قبيس ، فرأى زمزم تفور ماء ، وعندها خيمة هاجر . فرجع وأخبرهم ، فجاءوا إلى هاجر ، واستأذنوها أن يقعدوا معها . وهى كانت راغبة فيمن يقعد عندها ، يدفع عنها وحشة الوحدة ، وينسيها هم الغربة . فرحبت بهم ، وأذنت لهم ، بشرط ألا يكون لهم حق فى امتلاك بئر زمزم ، لأنها بئر ، أنشأها الله لها ولابنها . فنزلوا عندها ،

---

(١) زعم اليهود أن الذبيح إسحق عليه السلام وتبعهم النصارى تقليد بغير دليل إلا ما جاء فى التوراة وهو من تحريفاتهم فى الإصحاح الثانى والعشرين: وحدث بعد هذه الأمور: أن الله امتحن إبراهام ، فقال له يا إبراهام . فقال هأنذا . فقال الرب : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق ، واذهب إلى أرض الموريا .. الخ فزيادة إسحق ، من تحريف اليهود جزما ، لأن إسحق لم يكن وحيد إبراهيم قط ، وإنما ولد بعد اسماعيل الذى ينطبق عليه : أنه ابنه الوحيد عند الذبح . ووهم بعض علماء المسلمين ، فقالوا : الذبيح إسحق . سرى إليهم هذا الوهم من مسلمة أهل الكتاب . على أن من اليهود والذين أسلموا حقيقة ، من اعترف بأن التوراة مصرح فيها بذكر إسماعيل . روى محمد بن كعب القرظى : أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى رجل من اليهود ، أسلم وحسن إسلامه ، وكان من علماء اليهود: يسأله عن ذلك وأنا عنده . فقال له عمر : أى بنى إبراهيم هو الذبيح ؟ قال الرجل : هو إسماعيل ، والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه، لما فيه من الفضل لكم . قلت : وما هذا بأول تحريفاتهم ولا آخرها — فقد سجل الله عليهم قوله فى كتابه (يحرفون الكلم عن مواضعه .. .. يحرفون الكلم من بعد مواضعه) .

وبعثوا إلى أهلهم ، فجاءوا ونزلوا معهم ، حتى صاروا عدة أبيات . وكانوا من العرب العاربة ، وهم العرب البائدة فتعلم إسماعيل منهم العربية الفصحى . وشب فيهم ، وأنفسهم أى صار نفيسا غلبهم فى النفاسة ، بقوة جسمه ومتانة خلقه . فأعجبهم ذلك منه ، فزوجوه بنتاً منهم . ثم ماتت هاجر عليها السلام ، وجاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ينظر ما تركت هاجر من ميراث . وسأل امرأة إسماعيل عن زوجها ، حيث لم يجده فى البيت . وكان يخرج للصيد ، ويتعيّش منه . فقالت : خرج يبتغى لنا القوت بصيده . فسألها عن عيشهم وحالهم ؟ فأبرت ضجرها من المعيشة ، وشكت الضيق . وذلك يدل على ضعف إيمانها ، وعدم قناعتها . يضاف إلى ذلك أنها لم تدعه إلى دخول البيت ، ولم تقدم له قرى الضيف ، فكانت امرأة سوء . فلذلك قال لها . إذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يغير عتبة بابه . كناية عنها ، لأنها لا تصلح أن تكون زوجا لإسماعيل الرسول الكريم . وقد نفذ رغبة أبيه ، فطلقها .

ويأتى هنا سؤال ، وهو : لم يمكث إبراهيم ينتظر ابنه حتى يعود من الصيد ، وكيف طابت نفسه بالسفر قبل أن يراه ؟

أشكل هذا على بعض المعاصرين ، فادعى أن الحديث موضوعها [١] . وأجاب بعض المتقدمين بأن إبراهيم استأذن سارة فى السفر إلى هاجر ، فأذنت له ، بشرط ألا ينزل ولا يقعد . وهذا جواب بعيد ، بل باطل . والذى يظهر فى الجواب : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى مقام التوكل يسلك الأسباب ، من غير أن يعتمد عليها ، أو ينتظر نتائجها . بل يعتمد على

---

(١) إدعاء وضع الحديث لمجرد إشكال فيه ، دليل على قلة العلم ، وضيق الأفق .

الله تعالى ، وينتظر مايأتى من قبله : فهو حين شد رحلة إلى مكة ، سلك السبيل المعتاد لرؤية ابنه : لـكنه حين وجده فى صعيده ، أدرك أن الله لم يرد لقاءهما فى تلك المرة : فاكتفى بتوجيه النصيحة إليه، بتطليق امرأته التى لاتناسب حاله ومن الأمثال المشهورة : المقابلة تضيب . وكذلك جاء للمرة الثانية ، فلم يجده ، ووجد زوجه الجديدة . فسألها عنه ، فقالت ذهب يصيد ، ثم قالت له : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ قال : ما طعامـكم ؟ قالت : اللحم:قال وماشرابكم؟ قالت : شرابنا الماء ، فدعا لهم بالبركة فى طعامهم وشرابهم . ولو كان عندهم حب من قمح أو ذرة ، لدعا لهم بالبركة فيه . وبقيت بركة دعوته إلى اليوم ، وإلى قيام الساعة : فلا يمـكن لشخص بغير مكة ، أن يعيش على اللحم والماء وحدهما . ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : يمسك عتبة بابه . يكنى عنها ، أى لا يفارقها : لأنها قوية الإيمان ، شكرت نعمة الله. وكريمة النفس ، دعت ضيفهـا الـكريم ، إلى تناول الطعام والشراب . فاستحقت أن يمسكها إسماعيل ، فهى المرأة الصالحة التى تساعده ، ويجد الراحة إذا آوى إليها فى منزله . ولم ينتظر إبراهيم ابنه فى هذه المرة أيضاً ، لأنه أدرك أن اللقاء لم يقدر بعد . ومقام التوكل والتسليم عزيز غريب،تبدو تصرفات صاحبه عند عامة الناس غير مفهومة . لـكن الذائق له والمتلبس به . لا يشعر أن شيئاً يصدر منه غير مفهوم ، أو غير عادى . لأن اعتماده على الله، وتسليم القيادة إليه ، أراح قلبه ، وأغناه عن تلمس المناسبات . لأن الله إذا أراد شيئاً خلق مناسبته ، وهيأ لها الظروف الملائمة .

ثم عاد إبراهيم فى زيارة ثالثة ، فوجد إسماعيل قاعداً تحت شجرة كبيرة، قريباً من زمزم ، يبرى نبلا له ، من النبال التى يصيد بها . فلما رآه ، قام إليه مستقبلا . فتعانقا ، وقبله والده قبلة العطف والرحمة ، كما قبل هو والده ،

قبلة الإجلال والهيبة . وبعد انتهاء المقابلة ، وسؤال كل منهما الآخر عن صحته وحاله . قال إبراهيم : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال إسماعيل : فاصنع ما أمرك به ربك . فقال إبراهيم مستفهما : وتعيننى ؟ فإنى أحتاج إلى معين يعاوننى فيه . قال إسماعيل : وأعينك عليه ، أطلب رضاءك وثواب الله . قال إبراهيم : إن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، وأشار إلى الرابية المرتفعة بجانب زمزم . فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ويناولها لإبراهيم ، وهو يبنى . حتى إذا ارتفع البناء ، أتاه بالحجر الذى هو مقام إبراهيم . فوقف عليه ، وأكمل بناء الكعبة . وهما يقولان أثناء بنائهما يا (ربنا تقبل منا) هـذا العمل الذى هو بناء أول بيت يقام لك فى الأرض (إنك أنت السميع) لدعائنا وأقوالنا (العليم) بإخلاصنا فى طاعتك ، وسعينا فى مرضاتك . ولم يستعينا فى البناء بالسكان الموجودين هناك من جرهم والعمالقة ، لأنهما أحبا أن يقوما بهذه العبادة وحدهما . مبالغة فى طلب رضا الله وزيادة فى التقرب إليه . وقد يكون بعض الناس ، قد ساعدوهما بعض المساعدة . فى قطع بعض الأحجار ، ومناولة بعض الطين . وكان فى أسباب اختيار إبراهيم لهذه المهمة مع سابق علم الله وإرادته ـ أن إبراهيم رأى فى بلده حران معبداً للأصنام التى كانت تعبد من دون الله ، ورأى فى مصر أيضاً معابد يعبدون فيها الآلهة ، ويقربون لها القرابين . فآلمه كثيراً أن يكون للآلهة أماكن تعبد فيها ، مع أنها لا تنفع ولا تضر . ولا يكون لله الواحد القهار ، فى أرضه بيت يعبد فيه. فعهد الله إليه ببناء هذا البيت الذى يفرد فيه بالعبادة ، وينادى فيه بتوحيده .

(ما يؤخذ من القصة)

يؤخذ منها أمور :

١ — منها : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان شديد الثقة بالله ، قوى

الاعتماد عليه . حيث ترك فلذة كبده ، ووحيده الذى رزق به بعد دعاء وتوجه لله ، فى مكان قفر ، لا زرع فيه ولا ضرع ، ولا جليس ولا أنيس . تنفيذاً لأمر الله ، وإسراعا فى طاعته . وله مواقف كثيرة ، تؤكد شدة ثقته بالله ، واستسلامه إليه ، فى كل أموره ، من أجل ذلك اتخذه خليلا .

٢ — ومنها : أن من وثق بالله ، واعتمد عليه . حفظ أهله ، وأراه فيهم ما يحب . ألا ترى كيف أخرج الماء لهاجر ؟ وأتى بناس يسكنون معها ، يؤنسون وحشتها . ويعلمون ابنها العربية الفصحى الخالصة من لهجات خالطت لغة أبيه إبراهيم عليه السلام .

٣ — ومنها: أن السعى لا ينافى التوكل . فإن هاجر عليها السلام ، لما سألت إبراهيم : آلله أمرك أن تتركنا بهذا المكان القفر ؟ وقال لها : نعم ؟ قالت : إذن لا يضيعنا ، وتوكلت على الله ، ووثقت به . ومع ذلك لما فنى منها الزاد والماء ، قامت إلى الصفا والمروة ، تسعى بينهما تحاول أن تجد أحداً يسعفها. ولم يخدش ذلك توكلها ، بل جعل الله مكان سعيها شعيرة من شعائر الحج . قال تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) .

٤ — ومنها : أن الله تعالى كرم هاجر ، بجعل مكان سعيها من شعائر الله ، بإضافته إلى ذاته المقدسة . وهو تكريم للمرأة الصالحة ، لم تنله فى دين غير الإسلام[١] .

---

(١) قرأت فى جريدة الأخبار الصادرة يوم ١٩٦٧/٩/٨ أن محاميا ألمانيا اسمه : كريستوف ييجر . كتب رسالة للدكتوراه ، عن مركز المرأة فى الأحوال الشخصية عند المسلمين . تكلم فيها عن المساواة بين الرجل والمرأة فى القرآن ، وبين أن الشريعة الإسلامية هى الشريعة الأولى التى أعطت للمرأة حقوقها كاملة ، ومنحتها مزيدا من الحرية والاحترام . وذكر أن احترام المرأة فى الغرب يقوم على إعطائها كافة الحريات ، بحيث يمكنها أن تفعل ما تشاء ، ما دامت تؤدى عملها . أما احترام المرأة فى الشريعة الإسلامية فيقوم على طريق =

٥ — ومنها : أن الإنسان إذا سئل عن حاله ، فلا يظهر الشكوى والتضجر . بل ينبغى له أن يحمد الله ويثنى عليه ، ويظهر رضاه بحاله . ألا ترى إلى امرأة إسماعيل الأولى ، حين شكت الضيق والشدة ، أمره إبراهيم بمفارقتها . وامرأته الأخيرة ، حين أثنت على الله وأظهرت رضاها بحالها ، أمره بإمساكها .

٦ — ومنها : أن الأب الصالح ، إذا أمر ابنه بطلاق امرأته ، نفذ أمره فقد طلق إسماعيل امرأته الأولى ، تنفيذاً لأمر أبيه[1] .

٧ — ومنها : أن المرأة الصادقة ، يعمل بروايتها . فقد طلق إسماعيل امرأته ، لما روته عن أبيه .

٨ — ومنها : أن الشخص لو حفر بئراً فى أرض غير مملوكة لأحد ، كانت ملكاً له . فإن الناس الذين استأذنوا هاجر ، فى النزول عندها ، شرطت عليهم ألا حق لهم فى امتلاك الماء .

٩ — ومنها : أن الملك قد يظهر للشخص الصالح ويكلمه ، فقد ظهر جبريل عليه السلام لهاجر ، وكلمها مبشراً لها بأن ابنها سيبنى البيت مع أبيه . وتلك كرامة أكرمها الله بها ، ولم يصب من قال : إنها كانت نبية .

١٠ — ومنها : أن الشخص إذا قدم طاعة الله ، على حظ نفسه ، جعل الله

= حمايتها ضد المساوىء والخطيئة ، وتوجيهها للعمل الصالح. ونادى المحامى المذكور بضرورة تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية فى دول العالم ، لأنها الشريعة الوحيدة التى تقدم للمرأة كافة الحقوق والحريات ، وتمنحها مزيداً من الاحترام. وذكرت الأخبار أن ذلك المحامى سيقدم رسالته لتناقش فى شهر نوفمبر سنة ١٩٦٧ فى جامعة توبنجن جنوب شتوتجارت بألمانيا الغربية .

(١) وأمر عمر ابنه عبد الله رضى الله عنهما بطلاق امرأته فلم يفعل ، فشكاه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره بفراقها .

البركة فى أفعاله وما تلمسه بعض أعضائه . فإن إبراهيم لما ترك ابنه فى مكان قفر ، امتثالا لأمر الله . جعل البيت الذى بناه مباركا ، فقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) وجعل الحجر الذى قام عليه وهو يبنى البيت ، مكانا يصلى عنده . فقال تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

(مناقشات فى القصة)

أشكلت أشياء فى هذه القصة على بعض المعاصرين ، ونحن نجيب عنها :

١ — يفيد هذا الحديث أن هاجر ماتت بعد زواج إسماعيل ، وجاء إبراهيم يطالع تركته منها . قال بعض المعاصرين : والمشهور : أن هاجر ماتت بعد سارة ، وأنها حضرت بناء الكعبة ، وأنها كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير باسماعيل ، ليذبحه بعد النفر من عرفات .

هذا الكلام فيه تخليط . فبقاء هاجر بعد سارة لم يستند فيه إلا لما ذكره بعض الإخباريين، وذلك لا يصح أن يرد به ما يثبت فى صحيح البخارى[1] ودعواه أنها حضرت بناء البيت ، غير صحيح . وقوله : وأنها كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبيرا باسماعيل ، ليذبحه بعد النفر من عرفات ، غير محرر . فإن حادثة الذبح وقعت لإسماعيل وهو صبى ، لم يتجاوز الثانية عشر من عمره . وبناء البيت وقع بعد ذلك ، حين صار إسماعيل رجلا ، يقدر على حمل الحجارة ، ومشاق البناء . والذى يرى الحجر الذى هو مقام إبراهيم يتأكد أنه لا يقدر على حمله صبى فى الثانية عشر من العمر ، ومن الدليل على ذلك أيضاً دعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان: (ربنا واجعلنا

(١) بل ذكر معظم الإخباريين أيضاً : أن هاجر توفيت قبل سارة .

مسلمين الك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) فإسماعيل لم يدع بهذا إلا وهو رجل متزوج ، يأمل أن تكون له ذرية صالحة .

٢— يفيد الحديث أن إبراهيم لما جاءلزيارة إسماعيل بمكة ،ووجده فى الصيد ، لم ينتظره ، وقفل راجعاً إلى الشام . وقد أجبنا عنه ، فيما مر .

٣— جاء فى الحديث : وتعلم منهم العربية ، وهذا صحيح . فإن إسماعيل تربى فى مكة مع أمه المصرية ، ولغتها لم تكن عربية خالصة ، بل فيها دخيل كثير من لهجة القبط القديمة . فوجود جرهم ، أفاد إسماعيل فى تعلم العربية الفصحى الخالية من الدخيل .

(العـــبرة)

العبرة من هذه القصة : أن الله تعالى يمتحن خواص عباده المقربين ، إمتحانات شديدة قاسية . ليكثر أجرهم عنده ، ويزداد قربهم منه . ويربيهم على خشونة العيش ، وبعد عن الترف والتنعم . لتنمو رجولتهم ، وتقوى نفوسهم . وليعلموا أن نعيم الدنيا زائل ، فلا يلتفتون إليه . وأن زخرفها حائل ، فينصرفون عنه . ثم جعلهم بما امتحنهم به ، ورباهم عليه . قدوة للمؤمنين ، ومناراً للسالكين . فيا أيها المؤمن لا تضعف إن أصابتك شدة ، ولا تضجر إن مستك مصيبة . بل اعتصم بإيمانك ، واثبت على يقينك. واتل قول الله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) واجعل قدوتك إبراهيم الذى امتحن فى نفسه ، وفى ولده . فزاد إيمانه ، وعظم يقينه . ويا أيها السالك إلى الله ، الطالب لرضاه . شمر عن ساق الجد واترك الراحة والتنعم جانباً . وقدم نفسك قرباناً لله تعالى ، كما قدمها إسماعيل قبلك . اذبح شهواتها بمدية عزمك ، وأجهز على طمعها وتطلعها

بسيف قناعتك . ثم اذهب إلى الله تعالى بصدق وإخلاص ، وقل : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . يكن معك بالتأييد والتمكين (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)

(أوائل إبراهيم)

أخرج البيهقى من طريق سعيد بن المسيب عن أبى هريرة . قال : كان إبراهيم عليه السلام أول من اختتن ، وأول من رأى الشيب ، وأول من جز شاربه ، وأول من جز أظافيره ، وأول من استحد ، إسناده صحيح . وروى ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشعب أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً « إن إبراهيم عليه السلام أول من أضاف الضيف ، وأول من قص الشارب، وأول من رأى الشيب ، وأول من قص الأظافر ، وأول من اختتن بقدوم[1] » إسناده ضعيف . وفى مستدرك الحاكم وسنن البيهقى باسناد صحيح ، عن بن عباس رضى الله عنهما — فى قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) — قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . ففى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفى الجسد تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل مكان الغائط والبول بالماء . وروى وكيع ، عن جرير بن حازم ، عن واصل مولى بن عتيبة قال: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض على ، فإذا سجدت فلا تر الأرض عورتك ، فاتخذ السراويل . « لطيفة » أوحى الله تعالى إلى ابراهيم : يا إبراهيم إنك لما أسلمت مالك

---

(١) الآلة التى ينحت بها ، اختتن بها إبراهيم إسراعا فى تنفيذ الأمر . وقيل : القدوم اسم المكان الذى اختتن فيه .

للضيفان ، وابنك للقربان، ونفسك إلى النيران ، وقلبك إلى الرحمن ، اتخذناك خليلا .

(تنبيـــــه)

قال الله تعالى (واذكر فى الـكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح (قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فوفى بوعده ، ولم يجزع ولم يضطرب. حتى قال له أبوه نعم الولد أنت يابنى ، تعين على طاعة الله (وكان رسولا نبيا) أرسله الله إلى جرهم المقيمين معه بمـكة ، وذهب إلى تهامة ، يبلغ رسالته إلى بقية جرهم والعمالقة (وكان يأمر أهله) قومه وسمو أهله لأنه أصهر فيهم (بالصلاة والزكاة) هما أهم أركان الدين ، فالصلاة تصل العبد بربه ، وتنفحه بإمدادات إلهية . والزكاة تصل المسلم الغنى بأخيه الفقير ، وتربط بينهما برباط الأخوة والمحبة حتى كأنهما روحان يضمهما جسد . (وكان عند ربه مرضياً) لأنه قدم نفسه لله فى صغره وأدى الرسالة كما أمر بها فى كبره . وفيما بين ذلك ، بنى بيت الله لعبادته وتوحيده . وأطعم نفسه وأهله ، من صيده الحلال . ومما أكرمه الله به أن سخر له الخيل ، فذللها الركوب ، وكانت وحشية ، لم يركبها أحد قبله . ولهذا كنى بأبى السباع [1]

---

(١) توفى بمكة ودفن فى الحجر ، بجانب والدته . وفى ذلك المكان ، قبور جماعة من الأنبياء قال الثعلبى : أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبى العرابى أنبأنا المغيرة ابن الوليد بمكة فى المسجد الحرام بين الركن والمقام : أنبأنا الفضل بن يحيى الجندى - بفتح الجيم والنون - أنبأنا يونس بن محمد : أنبأنا يزيد بن أبى حكيم ، عن سفيان الثورى ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن سابط . أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم ، قبور تسعة وتسعين نبيا . وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام فى تلك البقعة .

(تنبيه آخر)

تقدم أن إسماعيل عليه السلام تعلم اللغة العربية من جرهم ، فهو أبو العرب المستعربة . ذلك أن العرب ثلاثة أنواع :

الأول : العرب العاربة وهم الخلص . وهم تسع قبائل ، من ولد أرم بن سام بن نوح ، وهى عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار .

الثانى : العرب المستعربة ، وهم الذين ليسوا بخلص . وهم بنوا إسماعيل ، من معد بن عدنان بن أدد .

الثالث : العرب المتعربة ، وليسوا بخلص أيضاً . وهم بنو قحطان باليمن ، تعلموا العربية من بنى إسماعيل الذى نزلوا هناك . قال عبد الملك بن حبيب الأندلسى : كان اللسان الأول الذى نزل به آدم من الجنة عربيا إلى أن بعد العهد وطال ، وحرف وصار سريانيا . وهو منسوب إلى أرض سورى أو سوريانة ، وهى أرض الجزيرة ، بها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق . وكان يشاكل اللسان العربى إلا أنه محرف ، وهو كان لسان جميع من فى سفينة نوح إلا رجلا واحداً . يقال له : جرهم . فكان لسانه لسان العربى الأول ، فلما خرجوا من السفينة ، تزوج أرم بن سام بعض بناته . فمنهم صار اللسان العربى فى ولده عوص أبى عاد وعبيل وجاثر أبى ثمود وجديس . وسميت عاد باسم جرهم ، لأنه جدهم من الأم . وبقى اللسان السريانى فى ولد أرفخشذ بن سام إلى أن وصل إلى يشجب بن قحطان من ذريته ، وكان باليمن . فنزل هناك بنو إسماعيل ، فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربى اهـ وروى الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب عن بريدة رضى الله عنه فى

قوله تعالى (بلسان عربى مبين) قال : بلسان جرهم . وروى الشيرازى فى الألقاب : أخبرنا أحمد بن سعيد المعدانى ، أنبأنا محمد بن أحمد بن اسحق اعاس ، حدثنا محمد بن جابر ، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن السكيت ، قال : حدثنى الأثرم ، عن أبى عبيدة حدثنا مسمع بن عبد الملك . عن محمد ابن على بن الحسين عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال « أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنة » .

٢ — (حكم صائب)

عن أبى هريرة رضى الله عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « كانت امرأتان معهما ابناها : جاء الذئب فذهب بابن إحداهما . فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك .فتحا كمتا إلى داود صلى الله عليه وسلم . فأخبرتاه . فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان صلى الله عليه وسلم فأخبرتاه . فقال : إئتونى بالسكين أشقه بينهما . فقالت الصغرى : لا تفعل رحمك الله . هو ابنها فقضى به للصغرى » رواه الشيخان .

مفردات الحديث واضحة

(المعنى)

كانت امرأتان من بنى إسرائيل ، تجمعهما معرفة وصداقة فبينما هما جالستان ، معهما ابناهما . إذ فاجأهما الذئب ، فخطف ابن إحداهما وذهب به . ولما أفاقتا من دهشتهما ، ورجعتا إلى وعيهما تنازعتا فى الولد الذى تركه الذئب. إدعت كل واحدة منهما أنه ابنها ، وإحداهما تعلم أنه ليس ولدها ، لكنها تريد أن تأخذه ، لتطفئ به نار الحرقة التى فى صدرها لفقد ولدها . وأصرت كلتاهما

على رأيها ، فلم يكن بد من التحاكم إلى القاضى ، ليفصل النزاع بينهما. فذهبتا إلى داود النبى والخليفة ، وقصتا عليه قصتهما . ويظهر أن الكبرى منهما كانت قد ترددت على المحكمة قبل هذه القضية ، وعرفت أساليب المحاكمة . فأظهرت من اللباقة فى الكلام ، وأبدت من الحزن المصطنع ، ما حمل داود على الحكم بأن الولد لها . لأنه رأى أن الحق معها ، فظفرت بالولد، وخرجت الصغرى خائبة . وكان داود يحضر ابنه سليمان فى مجالس الحكم ، ليتمرن على شئون الخلافة التى يتولاها بعد أبيه . فسبقهما بالخروج ، وتعرض لهما وهما خارجتان ، فسألهما عن قضيتهما ؟ فأخبرتاه . فطلب سكيناً ليشق الولد نصفين ، ويعطى كل واحدة منهما نصفه . فوافقت الكبرى ، وقالت الصغرى : لا تفعل رحمك الله هو ابنها ، فحكم به للصغرى . لأنها فضلت رؤيته حياً عند صاحبتها ، على قتله بالسكين أمام عينها .

(ما يؤخذ من الحديث)

يؤخذ منه أمران :

١ — أن اعتراف الشخص بشىء ، تحت تأثير من المؤثرات ، يكون لاغيا ، ولا يعمل به . فإن سليمان عليه السلام حكم بالولد للصغرى ، مع اعترافها بأنه للكبرى . لأنها اعترفت ، مخافة أن يشق ابنها بالسكين . وعلى هذا فالاعترافات التى تنتزع من الشخص بأنواعها من العذاب كالتهديد بالقتل أو بهتك العرض أو نحو ذلك ، تكون باطلة شرعا . وبعض الأئمة[1] أجاز أن يمس المتهم بعذاب ليقر ، لكن لم يجز أحد تلك الطرق التى اخترعت اليوم للتعذيب .

---

(١) هو الإمام مالك .

٢ — أن الحكم إذا كان خطأ ، يصح نقضه بل يجب . لإيصال الحق إلى صاحبه . فإن سليمان عليه السلام نقض حكم أبيه بحكم كان صوابا ، حصلت به صاحبة الحق على حقها .

ولسليمان قصة أخرى ، حكم فيها بغير حكم أبيه . وهى مذكورة فى القرآن الكريم . قال الله تعالى .

(وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) .

وحاصل القصة : أن حرثا وهو زرع لجماعة من الناس ، نفشت فيه غنم قوم — أى رعته ليلا[1] وليس معها راع — فأفسدته . فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، وقصوا عليه القصة . فحكم بالغنم لأصحاب الحرث يأخذونها عوضا عن الحرث الذى أفسدته ، حيث إن أصحاب الغنم مقصرون . وكان سليمان حاضراً مجلس الحكم — وعمره نحو إحدى عشر سنة — فقال : غير هذا أرفق بالفريقين . وأمر أن تدفع الغنم لأهل الحرث ، ينتفعون بألبانها وأشعارها . ويدفع الحرث ، لأهل الغنم ، يقومون عليه بالإصلاح ، حتى يعود كما كان ثم يترادان . أى يرد أهل الغنم الحرث لأصحابه ، ويرد أهل الحرث الغنم لأصحابها . هكذا ورد عن ابن عباس وقتادة . وقال ابن مسعود وشريح : إن راعياً نزل ذات ليلة بجانب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم ، وهو لا يشعر . فأكلت القضبان ، وأفسدت الكرم . فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود ، فقضى بالأغنام له لأنه لم يكن

---

(١) النفش — بفتح النون والفاء — لا يكون إلا بالليل ، بخلاف الهمل ، بالفتح أيضا ، فإنه يكون بالليل والنهار .

بين ثمن الأغنام وثمن الكرم تفاوت . فمرا بسليمان ، وهو ابن إحدى عشرة سنة . فقال لهما : ما قضى بينكما داود ؟ فقصّا عليه القصة . فقال : غير هذا أرفق بالفريقين . فعادا إلى داود ، فأخبراه بذلك . فدعا سليمان ، وقال له : بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتنى بالذى هو أرفق بالفريقين . فقال سليمان : تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها وصوفها ومنافعها ، ويعمل الراعى فى إصلاح الكرم ، إلى أن يعود كهيئته ، . ثم يتسلمه صاحبه ، وترد الأغنام إلى صاحبها . فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك . فذلك قوله تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) قال الحسن : كان الحكم ما قضى به سليمان ، ولم يعنف الله داود فى حكمه . قلت وذلك يدل على أن الأنبياء كانوا يجتهدون ، وأن المخطىء فى اجتهاده غير مؤاخذ .

(العـــبرة)

العبرة من القضيتين : أن الله تعالى قد يتفضل على الصغير ، فيعطيه مالا يعطى الكبير . وفى المثل المشهور : يضع سره فى أضعف خلقه . لكن بشرط الأهلية ، وسليمان كان أهلا لما أعطى من إصابة الحكم . وتكفى شهادة الله له بقوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) :

(تنبيـــــه)

سليمان عليه السلام أول من فرق بين الشهود . وذلك أن امرأة رميت بالزنا — مع أنها صالحة — وشهد عليها أربعة شهود أمام داود عليه السلام ، فأمر برجمها فعلم سليمان ، فطلب من كل شاهد أن يشهد على انفراد . فاختلفت أقوالهم ، وظهر كذبهم ، وبرئت المرأة .

(تنبيه آخر)

كان العلاء بن الشخير يقول : العافية مع الشكر ، أحب من البلاء مع

الصبر . قال سفيان الثورى : وذلك لأن الله تعالى مدح سليمان مع العافية بقوله (نعم العبد إنه أواب) وقال فى صفة أيوب مع البلاء الذى كان فيه (نعم العبد إنه أواب) ، فاستوت الصفتان ، وهذا معافى ، وهذا مبتلى ، فوجدنا الشكر قد قام مقام الصبر . فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر ، أحب من البلاء مع الصبر .

٣ ــ (صدقة مقبولة)

عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال (قال رجل : لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق . فقال اللهم لك الحمد على سارق . لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية . فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى . فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى . فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غنى . فأتى فقيل له : أما صدقتك على سارق ، فلعله أن يستعف عن سرقته . وأما الزانية ، فلعلها أن تستعف عن زناها . وأما الغنى ، فلعله أن يعتبر ، فينفق مما آتاه الله) .

رواه الشيخان، وهذا لفظ البخارى .

(المفردات)

تصدق بضم التاء والصاد وكسر الدال المشددة وفتح القاف . فأتى ، بضم الهمزة وكسر التاء وفتح الياء .

(المعنى)

صاحب هذه القصة رجل خيِّر ، أراد أن يتصدق بصدقة يرجو ثوابها من الله . فخرج بصدقته ليلا ، يخفيها من الناس ، فوقعت فى يد سارق . ويظهر أنها كانت مبلغاً له بال ، فأصبح الناس يتحدثون متعجبين ، يقولون : تصدق

الليلة على سارق ! مع أن السارق يستحق العقوبة لا الصدقة ، لأنه يسرق أموال الناس . فحمد الله صاحب الصدقة ، وأخرج صدقة ثانية ، فوقعت فى يد زانية فتعجب الناس ، وتحدثوا بهذه الصدقة التى وقعت فى غير موقعها . كيف يتصدق على زانية تبيع نفسها ؟ وتتاجر بعرضها وشرفها ؟ وعلم صاحب الصدقة فحمد الله . وأخرج صدقة ثالثة ، فوقعت فى يد غنى . وتعجب الناس أيضاً ، وتحدثوا بهذه الصدقة التى أخذها غنى ، هو أولى بأن يدفعها ومثلها لفقير محتاج وعلم صاحب الصدقة ، فحمد الله ، واعتقد أن هذا أمر أراده الله ولم يحاول أن يخرج صدقة رابعة ، فأتاه ملك فى صورة إنسان ، وأخبره أن صدقته قبلت كما جاء فى رواية أخرى . ثم قال له : أما صدقتك على السارق ، فلعله أن يستعف عن سرقته بسببها . بأن يتخذها رأس مال يتاجر بها . وأما الزانية فلعلها أيضاً تستعف عن الزنا بصدقتك بأن تسهم بها فى معاملة تعـود عليها بربح يـكفيها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر بك ، ويقول فى نفسه : هذا أخرج بعض ماله صدقة لله ، يبتغى بها رضاه ومثوبته . فينبغى لى أن أعمل مثله فينفق مما آتاه الله .

وبذلك يكون لصاحب الصدقة أجره مرتين : مرة على صدقته ، وأخرى على استعفاف السارق والزانية بها ، واقتداء الغنى به .

(ما يؤخذ من الحديث)

يوخذ منه أمران :

١ — أن الإنسان إذا أخرج صدقة ، لا يضيره أن تقع فى يد من لا يستحقها . وهذا فى صدقة النفل ؛ أما الصدقة المفروضة — وهى زكاة المال وزكاة الفطر — فلا تصح إلا إذا أعطيت لمن عينه الشارع لأخذها . قال الله تعالى فى زكاة المال (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها

والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) وزكاة الفطر ، بين الحديث أنها تعطى للمسلم الفقير ، والأفضل ألا يكون عاصياً .

٢ — أن المسلم إذا حصل له ما يكره ، فينبغى له أن يقابله بالحمد . وهو أعلى من الصبر ، لأنه يدل على الرضا . ولهذا قال عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى فى كتابه إليه : إن استطعت أن ترضى ، وإلا فاصبر .

(العــــبرة)

العبرة فى هذه القصة : أن بعض الأشياء قد تبدو للناس غير مفهومة ، أو غير معقولة . مثل الصدقة على السارق والزانية والغنى . بدت للناس غير مفهومة ، فتحدثوا عنها ، متعجبين منها . حتى إن صاحب الصدقة نفسه ، لم يملك إزاءها إلا أن يحمد الله الذى لا يحــمد على مكروه سواه . لكنها فى الباطن اشتملت على حكم تجعلها مفهومة ومعقولة . بحيث ظهر لصاحب الصدقة أن ما وقع ، كان خيراً وأعظم لأجره . وهذا معنى ما يقال : لو اطلعتم على الغيب ، لاخترتم الواقع . والناس يروونه حديثاً ، لكنه ليس بحديث .

وهذه القصة ، تشبه قصة الخضر عليه السلام . فإنه خرق السفينة ، وقتل غلاما ، وأقام جداراً من غير أن يأخذ عليه أجراً . وبدت أعماله غير مفهومة لموسى عليه السلام ، فأنكرها عليه . فلمــا بين له حكمتها ، سلم واطمأن .

وقصة أخرى تشبهها : كان نبى من بنى إسرائيل قاعداً تحت شجرة ، يستظل بظلها . وتحته عين تجرى ، فجاء شخص يحمل صرة دراهم ، ووضعها بجانب العين ونزل إلى حافتها فاستحم . ومكث يستريح ، ثم ذهب ونسى

الصرة حيث تركها . فجاء شخص ثان فاستحم ووجد صرة الدراهم ، فأخذها وذهب . ثم جاء شخص ثالث ، وقعد بجانب العين يستريح . وإذا بالشخص الأول جاء يجرى ، كأنه جمل هائج . تذكر صرة الدراهم ، فجاء يبحث عنها . فوجد ذلك الرجل بجانب العين ، فسأله عن صرة الدراهم ؟ فأجاب : لم أرها ، فكذبه صاحبها .

وحصلت بينهما مخاصمة ، أدت إلى تماسك بالأيدى ، فضرب صاحب الدراهم خصمه بسلاح كان معه فقتله . فقال ذلك النبى : عجبا يا رب ! شخص يأخذ الدراهم ، وآخر يقتل بسببها ؟ فأوحى الله إليه : إن الدراهم التى أخذها ذلك الرجل وذهب ، كانت ديناً لأبيه على الرجل الذى جاء يحملها، وما طله بدفعها ، حتى مات ولم يأخذها فأخذها ولده . وأما الرجل الذى وجده على العين وقتله ، فإنه كان قد قتل والده من قبل ، وهو لا يزال طفلا . فلم يقتل إلا قاتل أبيه ، وإن كان لا يعرف ذلك .

(تنبيه ــــ ٨)

لو قتل رجل شخصاً فى خصومة مثلا ، ثم تبين أن الشخص المقتول ، يستحق القتل فى قصاص أو حد . فلا يقتل القاتل فى هذه الحالة ، لإزهاقه نفساً تستحق الإزهاق . لكن يعاقب بغير القتل ، لافتياته على الحاكم ، وإقدامه على القتل .

٤ — (إن لنفسك عليك حقاً)

عن أبى جحيفة رضى الله عنه . قال : آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء رضى الله عنهما . فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء مبتذلة . فقال : ما شأنك ؟ قالت أخوك أبو الدرداء ، ليس له حاجة فى الدنيا . فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاما ، فقال له : كل ، فإنى صائم . قال :

ما أنا بآكل حتى تأكل ، فأكل . فلما كان الليل ، ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم ، فنام . ثم ذهب يقوم ، فقال له : نم ، فنام . فلما كان آخر الليل ، قال سلمان : قم الآن ، فصليا جميعاً : فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صدق سلمان » رواه البخارى .

(المفردات)

جحيفة ، بضم الجيم ، وفتح الحاء مبتذلة بالذال المعجمة : أى لابسة ثيابا ممتهنة بالية . فأعط ، بهمزة قطع مفتوحة ، وإسقاطها لحن وتحريف .

(المعنى)

لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، آخى بين الصحابة ، توكيداً لأخوة الدين ، واذهابا للفوارق التى كانت فى الجاهلية . وكانوا يتوارثون بهذه الأخوة ، فإذا مات صحابى أنصارى ، ورثه أخوه الصحابى المهاجرى ، وبالعكس . حتى نزل قوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين) الآية . فبطل التوارث بهذه الأخوة ، وبقيت أخوة دينية روحية . وممن آخى بينهم النبى صلى الله عليه وسلم سلمان الفارسى[1] وأبو الدرداء. فذهب سلمان إلى أبى الدرداء يزوره فى بيته ، قياما بحق أخوته . فوجد امرأته أم الدرداء ، مبتذلة فى لبسها وهيئتها . فسألها لم لا تتجمل لزوجها فى بيتها ؟ فقالت : أخوك أبو الدرداء لاحاجة له فى الدنيا ، ولا غرض

---

(١) كان من أجلاء الصحابة ، وهو من شيعة على عليه السلام . وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه مؤسس مذهب الباطنية ، وهى تهمة باطلة .

له فى النساء . جعل الزهد غايته ، والعبادة صناعته . فلمن أتجمل ؟ وجاء أبو الدرداء ورحب بأخيه سلمان فى بيته . ثم قدم له الطعام ، وقال له : كل ، ولا تنتظرنى ، فإنى صائم صيام تطوع لله تعالى . فقال له سلمان : لست بآكل من هذا الطعام ، ولا ذائقاً منه شيئاً ، حتى تأكل معى . فأكل أبو الدرداء مع أخيه وضيفه . فلما جاء الليل ، ترك أبو الدرداء ضيفه ينام ، وقام يريد إحياء الليل بالصلاة كعادته . فقال له سلمان : نم وأرح جسمك من تعب العمل طول النهار ، فنام إرضاء لضيفه . ثم أراد أن يقوم للصلاة بعد هجعة ، فقال له : نم ، فنام ، حتى إذا كان آخر الليل ، وقرب أذان الفجر ، قال له سلمان : قم الآن ، فتجهز . لصلاة الصبح. فقاما وتوضئا ، وصليا جميعاً ركعات لله . وأذن الصبح ، فصلياه جماعة . وقال له بعد الصلاة . ياأبا الدرداء لا تتجه للعبادة والزهد ، وتترك ماعداهما . فإن عليك حقوقاً كثيرة : إن لربك عليك حقاً ، وهو أداء ما فرضه عليك . وإن لنفسك عليك حقاً ، وهو أن تعطيها قسطاً من النوم والراحة ، ومن الطعام الحلال ، والزينة المباحة (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإن لزوجك عليك حقاً ، وهو أن تطعمها وتكسوها وتعفها ، ولا تذرها كالأرملة وهى لها زوج فاعط كل ذى حق حقه ، وكما تخشى أن يحاسبك الله على إضاعة حقه ،فاخش أن يحاسبك على إضاعة حق نفسك وأهلك . بدا هذا الكلام غريباً لأبى الدرداء الذى ألف العزوف عن الدنيا وملذاتها ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فحكى له ما جرى بينه وبين سلمان ، وذكر نصيحة سلمان له . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « صدق سلمان » فيما قال ، وفهم روح الإسلام الذى أتى بالتيسير ، ولم يأت بالتعسير .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال له : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ » قلت : بلى يارسول الله . قال « فلا تفعل . صم وافطر ونم وقم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينيك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإن لزورك — زوارك — عليك حقاً وإن لجسمك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإذا ذلك صيام الدهر » وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم ، أمرهم من الأعمال بما يطيقون . قالوا : إنا لسنا كهيئتك يارسول الله ، فيغضب حتى يعرف الغضب فى وجهه . ثم يقول « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » فهذا الحديث يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمر الصحابة بما يسهل عليهم ، دون مايشق خشية أن يعجزوا عنه ، وكان هو يفعل بمثل ما يأمرهم به ، ليكون أسوة لهم بقوله وفعله .

والمقصود أن الدين الإسلامى ، مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على التشديد والتعسير . قال الله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .. وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقال فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم التى أنزلها فى التوراة (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ومن هنا رخص للمريض والمسافر أن يفطرا فى رمضان ، كما رخص للمريض أن يتيمم إذا لم يقدر على الماء ، وأن يصلى قاعداً إذا لم يقدر على الصلاة قائماً ، ورخص المسافر أن يقصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، وهم صائمون فى رمضان ، فأخذ قدحاً من ماء ، وشرب منه نهاراً أمام الصحابة ليفطروا ، ثم بلغه أن جماعة منهم ظلوا صائمين ، فقال عليه الصلاة والسلام « أولئك العصاة » وكرر هذه العبارة مرتين أو ثلاثاً ، وفى الحديث الصحيح « ليس من البر الصيام فى السفر » .

(ما يؤخذ من الحديث)

يؤخذ منه أمور :

١ — أن الصائم المتطوع بصومه ، يجوز له الإفطار ، ولا إثم عليه .

وقد ثبت فى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم أصبح يوماً صائماً ، ثم أتته بعض أمهات المؤمنين بطعام . فقال : « أرونيه فقد أصبحت صائماً » وأكل منه . وعند المالكية لا يجوز للمتطوع بصومه أن يفطر ، وإذا فعل يكون آثماً . إلا إذا أمره بالإفطار والده أو شيخه ، فيفطر ولا إثم عليه . وحصل مرة : أن حضر مولانا الأستاذ الشيخ الإمام الوالد رضى الله عنه حفلة بعض الإخوان الصديقين بطنجة ، وحضرها بعض الأتباع وهم صائمون ، فأمرهم بالإفطار فأفطروا . وعلم بعض أهل العلم ، فاعترض بأن هذا لايجوز . فبعث له الأستاذ الإمام الوالد يبين له أن إفطار الصائم المتطوع ، أجازته السنة الصحيحة ، وذكر له الأحاديث . ثم قال له : وحادثتنا جائزة أيضاً فى مذهب المالكية ، لأنهم أجازوا للصائم المتطوع أن يفطر بأمر والده أو شيخه . وأنا شيخهم وقد أمرتهم بالإفطار ، وأراه النص فى كتب المالكية . وهكذا كان مولانا الأستاذ الشيخ الإمام الوالد واسع الاطلاع ، قوى الحجة يلزم المقلدين من كتب مذهبهم ، ويريهم نصوصاً لا يعرفونها . وكان قد رأى فى بداية طلبه للعلم ، رؤيا حاصلها : أنه دخل على الإمام مالك فى قبة وجلس بين يديه ، فسلمه كتاب المدونة . فكان بعد فى الفقه المالكى ، لا يشق له غبار . حتى إن شيخه السيد المهدى الوزانى مفتى الشمال الإفريقى ، نقل بعض فتاويه [1] .

---

(١) وكان يقرأ جمع الجوامع فى الأصول ، على العلامة السيد محمد بن جعفر الكتانى بجامعة القرويين . فصعب عليه فهمه أول الأمر . فجاءه العارف الشعرانى فى المنام ، وسأله : مالك مهموما ؟ فأجابه بقوله : صعب على جمع الجوامع ، فأنا مهموم لذلك . فقال له : هات المتن ،=

٢ — أن صاحب البيت ، ينبغى له أن يأكل مع الضيف ، ليؤنسه ويذهب عنه وحشة الغربة . أما النوم فإنه ينبغى له أن يتركه ينام وحده ، لأن ذلك أدعى لراحته .

٣ — أن المؤمن يجب عليه أن يؤدى ما عليه من حقوق لله ولمخلوقاته ، وألا يغلب حقاً على حق . ومن هنا عرف العلماء الشخص الصالح بأنه الذى يؤدى حق الخالق ، وحق المخلوق . وسمى الله الأنبياء صالحين ، لأنهم أدوا حقه فى الطاعة ، وحق عباده فى التبليغ والنصيحة .

٤ — أن المؤمن ينبغى له أن يقتصد فى العبادة ، وألا يكثر منها حتى يكل وينقطع . ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم ، دخل عليها وعندها امرأة (١) . قال : « من هذه ؟ » قالت : هذه فلانة يذكر من صلاتها ، تعنى أنها تصلى كثيراً ، قال : « مه عليكم بما تطيقون . والله لا يمل الله حتى تملوا » الحديث . مه — كلمة زجر ، أى اكتفى ، لا يمل الله أى لا يعاملكم معاملة المالّ فيقطع ثوابه عنكم — حتى تملوا فتنقطعوا عن العبادة . وفى الصحيحين أيضاً عن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال : « ما هذا الحبل ؟ » قالوا : هذا حبل لزينب ، فإذا فترت تعلقت به . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد » .

= لأشرحه لك ، فأحضر المتن ، وصار الشيخ الشعرانى يفك له ألفاظه وعباراته بشرح وجيز . فاستيقظ من نومه ، وقد سهل عليه فهم الكتاب ، ولم يجد صعوبة فى علم الأصول بعد ذلك . ومن ثم أحب الشيخ الشعرانى . ودأب على اقتناء كتبه . حتى تيسر له منها مالم يتيسر لغيره ، وحصل على رسائل من تأليفه بخطه .

(١) قيل : هذه المرأة من بنى أسد ، ولمسلم من طريق الزهرى عن عروة : أنها الحولاء بنت تويت .

٥ — أن الإنسان يجوز له أن يعلن عن عبادته إذا أمن الرياء ، فإن أبا الدرداء لما قدم الطعام لسلمان قال له : كل فإنى صائم ، وبالضرورة لم يقصد رياء .

٦ — أى ينبغى للمرأة فى بيتها أن تكون نظيفة حسنة الثياب تتجمل بذلك لزوجها ، فإن سلمان أنكر على أم الدرداء حين وجدها مبتذلة فى ثيابها .

٧ — أن المؤمن إذا رأى فى أخيه أو أخته ما يحتاج إلى إصلاح ، نبهه إليه ، لأن المؤمن مرآة المؤمن ،

(العـــبرة)

العبرة فى هذا الحديث : أن التقرب إلى الله ، ونيل رضاه . ليس طريقه كثرة العبادة ، والتشدد فيها . لكن طريقه أداء العبادة المطلوبة ، على وجه لا يدعو إلى الملل والإعياء ، ولا إلى العجب والرياء .

ومن هنا ترك أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ما كان عليه الصوفية قبله من خشونة فى المأكل والملبس ، ولبس المرقعة ، وغير ذلك مما كانوا يأخذون المريدين به . ولهذا أيضاً كان كلّ الأولياء ، لا يزيدون فى تعبدهم على ما كان عليه حال النبى صلى الله عليه وسلم وهديه .لأن حاله أشرف حال ، وهديه أكمل هدى .

٥ — (معجـــزة)

عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم نفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء . فلما التقى المسلمون والمشركون ، ولى المسلمون

مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أكفها إرادة ألا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى عباس ناد أصحاب السمرة » قال العباس ـ وكان رجلا صيتًا : فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السمرة؟ فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى ، عطفة البقر على أولادها . فقالوا : يالبيك يا لبيك ، فاقتتلوا هم والكفار . والدعوة فى الأنصار ، يقولون ! يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم . فقال « هذا حين حمى الوطيس » ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات ، فرمى بهن فى وجوه الكفار . ثم قال : « انهزموا ورب محمد » فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلا ، وأمرهم مدبرا .

(المفردات)

حنين ، بضم الحاء وفتح النون : موضع قريب من الطائف ، وقعت فيه الغزوة المعروفة به . ويقال لها أيضاً : غزوة هوازن ، وغزوة أوطاس ، بفتح الهمزة وسكون الواو : اسم لموضع القتال . السمرة ، بفتح السين وضم الميم : الشجرة . والمراد بها هنا : الشجرة التى وقع تحتها بيعة الرضوان . وهى المذكورة فى قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) . صيتاً : بتشديد الياء المكسورة ، عظيم الصوت . لبيك : مصدر معناه : إجابة لك بعد إجابة . حمى ، بفتح الحاء وكسر الميم وفتح الياء ، الوطيس بفتح الواو وكسر الطاء : التنور . وهذه العبارة كناية عن اشتداد القتال . ولم ينطق بها

أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أول من قالها . حدهم ، بالحـاء المهملة : بأسهم ، كليلا : ضعيفاً : وأمرهم مدبراً : كناية عن هزيمتهم .

(المعنى)

لما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ، وأطاعت له العرب . إلا هوازن و ثقيفاً ، فإن أهلها كانوا طغـاة عتاة . فمشى أشراف القبيلتين ، بعضهم إلى بعض . فأشفقوا أن يغزوهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم . وقالوا : قد فرغ لنا ، فلا ناهية له دوننا ، والرأى أن نغزوه . فجمعوا جموعهم ، واستعدوا للقتال . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسـلم فخرج إليهم فى اثنى عشر ألف رجل ، ألفان من أهل مكة ، وعشرة الآلاف الذين فتح الله تعالى بهم مكة . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم عبد الله بن أبى حورد الأسلمى ، وأمره أن يدخل فيهم ، ويسمع منهم ما أجمعوا عليه . فدخل فيهم ومكث فيهم يوماً أو يومين . وسمع كلامهم ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر . فجاء رجل ، فقال : يا رسول الله إنى انطلقت بين أيديكم حتى اطلعت جبـل كـذا ، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشبابهم ، اجتمعوا إلى حنين . فتبسم صلى الله عليه وسـلم ، وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى » واستعار صلى الله عليه وسلم من صفوان ابن أمية — قبل إسلامه — مائة درع بما يكفيها من السلاح . كما استعار من ابن عمه نوفل بن الحارس بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، وقال له « كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهور المشركين » فلما قرب من العدو ، صـفهم ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار . فلواء المهـاجرين أعطاه علياً عليه السلام ، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر رضى الله عنـه ، ولواء الأس أعطاه أسيد بن حضير رضى الله عنه . وركب صلى الله عليه وسلم بغلته

ولبس درعين المغفر والبيضة ، ومروا بشجرة سدرة ، كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم ، فقال الصحابة : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى عليه السلام (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) لتركبن سنن من كان قبلكم » ، سنن ، بفتح السين : طريق ، فلما وصلوا إلى حنين وانحدروا فى الوادى عند غبش الصبح ، خرج عليهم القوم — وكانوا كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه بإشارة دريد بن الصمة — فاستقبلوهم بالنبل ، كأنهم جراد منتشر ، وكانوا رماة ، لا يكاد يسقط لهم سهم ، فولى المسلمون منهزمون ، لأنهم فوجئوا بالنبال تتساقط عليهم من كل جهة ، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم ، وثبت معه نحو ثلاثمائة ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن أخيه الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب ابن عمه أبى لهب ، وفقئت عينه فى هذه الغزوة ، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، إنى عبد الله ورسوله » ، ويركض بغلته إلى جهة الكفار ، والعباس آخذ باللجام ، يكفها حتى لا تسرع إلى جهتهم ، مخافة أن يحصل أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركابه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عباس ، ناد أصحاب السمرة » ليذكرهم بالشجرة التى بايعوا تحتها بيعة الرضوان ، وهى التى بايعوا فيها على الجهاد فى سبيل الله ، وكان العباس عظيم الصوت ، كان يقف على جبل سلع بالمدينة ، وينادى غلمانه آخر الليل ، وهم بالغابة ، فيسمعهم ، وبين الغابة وسلع ثمانية أميال ، فنادى العباس : يا أصحاب السمرة ، فتذكروا بيعتهم تحتها بالجهاد ، وأفاقوا من دهشة المفاجأة ، وتحركت همتهم لطلب الاستشهاد ، فأسرعوا إليه مجيبين : يا لبيك يا لبيك ، وعطفوا على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، عطفــة البقر على أولادها ، حين تحس بخطر يهددها ، حتى إذا انتهوا إليه ، وتمام عددهم ثلاثمائة — استقبلوا الـكفار ، فاقتتلوا — وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلى القوم وهم يجتلدون ، وجعل يتطاول على بغلته ، ليستوعب رؤيتهم ، فقال : « الآن حمى الوطيس » أى اشـتدت الحرب ، وصار يقول :

« أنا النبى لا كـذب — أنا ابن عبد المطلب »

ثم تناول قبضة من تراب ، فيها حصيات ، فرمى بها فى وجوه الـكفار . « ثم قال : إنهزموا — بفتح الزاى — ورب محمد » قال العباس : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى . فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى بأسهم ضعيفاً ، وولوا مدبرين . حدث بعض المشركين ، حضر يوم حنين . قال : التقينا نحن وأصحاب محمد ، لم يقوموا لنا حلبة شاة أن كشفناهم، فبينما نحن بسوقهم ، ونحن فى آثارهم . إذ صاحب بغـلة بيضاء ، وإذا هو محمد . فتلقانا عنــده رجال بيض الوجود ، حسان الوجود — هم الملائـكة — وقالوا : شاهت الوجوه ، إرجعوا ، فانهزمنا من قولهم ، وركبوا أجسادنا ، فـكانت إياها ، يعنى الهزيمة. وإلى رميه صلى الله عليه وسلم بالحصى ، أشار البوصيرى فى الهزيمة بقوله :

ورمى بالحصى فأقصـــد جيشاً ما العصا عنــده وما الإلقاء ؟

يعنى : ورمى صلى الله عليه وسلم بالحصى فأصاب جيشاً عظيما وهزمــه ، أى شىء عصا موسى عنـد ذلك الحصى ؟ وأى شىء إلقاء موسى عليه السلام لعصاه عند إلقاء ذلك الحصى ؟ شيئان ما بينهما ، فلا يقاس هـذا بذاك . لأن هـذا أعظم ، فانقلاب العصا ثعباناً ، مشابه لانقلاب حبال السحرة وعصيهم ثعابين ، وابتلاعها لحبالهم وعصيهم ، لم يقهر العدو . بل زاد عتوهم ، وزعموا

أن موسى عليه السلام علم السحرة بعض السحر ، وغلبهم ببعضه الآخر ، أما الحصى ، فإن إلقاءه أهلك العدو ، وكسر جيشه . ولما انهزم المسلمون فى أول الغزوة ، تكلم رجال من أهل مكة بما فى نفوسهم من حقد ، فقال أبو سفيان ، وكان إسلامه مدخولا ، وكانت الأزلام فى كنانته ، لا تنتهى هزيمتهم - يعنى المسلمين - دون البحر ، والله غلبت هوازن . فقال له صفوان : بفيك الحجر . وفرح قوم من مكة بهزيمة المسلمين ، وأظهروا الشماتة . ولكن الله كبتهم وخيب آمالهم ، فنصر المسلمين ، نصراً مؤزراً ، وكانت أموال هوازن غنيمة للمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

(ما يؤخذ من القصة)

يؤخذ منها أمور :

١ — جواز الاستعانة بأسلحة الكفار ، فقد استعار النبى صلى الله عليه وسلم سلاحاً من صفوان بن أمية ، قبل إسلامه . ولذلك لما بعث إليه ، يقول له « يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غداً » قال صفوان ، أغصباً يا محمد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « بل عارية وهى مضمونة حتى نؤديها إليك » قال : ليس بهذا بأس .

٢ — أن الصحابة - مع إيمانهم التام بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدتهم لنزول الوحى عليه ، ورؤيتهم للمعجزات التى أيده الله بها . تعتريهم نوبات من الضعف البشرى ، فتحملهم على الهرب والفرار ، طالبين النجاة بأنفسهم . وأن ذلك لا يخدش إيمانهم ، ولا ينقص يقينهم ، وفى هذا توسعة على عامة المؤمنين الذين يعتريهم مثل هذا الضعف ، وهم دون الصحابة إيماناً ويقيناً .

٣ — أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أشجع الناس ، وأقواهم قلباً ، وأثبتهم جناناً . وهذا معلوم من حاله صلى الله عليه وسلم بالضرورة ، وقد قرر

العلماء : أن من خصائصه عليه الصلاة والسلام ألا ينهزم ولا يتراجع ، بل يجب عليه أن يثبت ولو اجتمع ضده أهل الأرض، لأنه موعود بالنصر. ولذلك قال : أنا النبي لا كذب . يشير إلى أن ثباته صلى الله عليه وسلم لأنه نبي صادق مصدوق .

٤ — أن الفخر في الحرب بقصد إغاظة الكفار ، أو تحريك همم المسلمين . جائز ، بل مرغوب فيه . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

« أنا النبي لا كذب — أنا ابن عبد المطلب »

فحرك عزيمة المسلمين ، وأثار حماسهم بالشطر الأول ، وأغاظ الكفار ، وأهاج حقدهم بالشطر الآخر .

٥ — أن من نسي عهداً قطعه على نفسه ، ينبغي تذكيره بأسلوب لطيف لا يجرح شعوره . لأن الصحابة لما فروا منهزمين ، ونسوا بيعتهم التي قطعوا فيها العهد بالجهاد حتى الممات . أمر النبي صلى الله عليه وسلم العباس أن يناديهم يا أصحاب السمرة ، تذكيراً لهم بالعهد . فلما سمعوه وتذكروا ، أقبلوا مسرعين حتى يقول بعضهم -لشدة إسراعهم-: فلرماحهم أخوف عندي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من رماح الكفار .

٦ — نداؤهم بيا أصحاب السمرة - وهذا لقب محبوب لهم ، لأنه يذكر بالبيعة التي يعتزون بها - يفيد أن قائد الجيش ينبغي له أن ينادي أفراد جيشه بألقاب يحبونها ، ويسميهم بسمات يرضونها . فإن ذلك يحببه إليهم ، ويجعلهم أكثر طاعة له .

٧ — أن النبي صلى الله وعليه وسلم كان يسلك الأسباب المادية ، والأسباب المعنوية . فإلى جانب استعداده عليه الصلاة والسلام لغزو هوزان لرجالا والسلاح، وهذا سبب مادي، سلك السبيل المعنوي، فرماهم بالحصيات

ومعنى هـذا أن المؤمن ينبغى له فى جميع شئونه أن يسلك السبيلين ، إقتـداء بذى الشفلين .

(العـــبرة)

لما أقبل الصحابة على حنين ، وكانوا إثنى عشر ألف رجل ، قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله لن تغلب اليوم من قلة ، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءته تلك الـكلمة ، فلمـا وصلوا إلى حنين ، انهزموا وفروا ، وأنزل الله (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتـكم فلم تغن عنـكم شيئاً وضاقت عليـكم الأرض بمـا رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الـكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ، إذن فـكثرة الجيش لا تقتضى النصر، ولا تستدعيه ، كم من فئة قليلة ، غلبت فئـة كثيرة بإذن الله ، والعبرة من ذلك أن المسلمين إذا كانوا فى جهـاد مع الـكفار ، ينبغى لهم ألا يعجبوا بـكثرتهم ، ويركنوا إليهـا ، بل عليهم أن يسلـكوا الأسباب المضادة ، ويخلصوا النية ، ويصدقوا العزيمة ، ثم بعد ذلك يلجئون إلى الله تعالى ، فى طلب نصره ، وما النصر إلا من عند الله ، وفى القصة عبرة من جهة أخرى ، هى أن الشىء قد يكون صغيراً فى مظهره ، كبيراً فى أثره ، فرمى حصيات فى وجوه الـكفار ، أمر يسير ، لـكنه فى الأثر الذى ترتب عليه كثير ، إذ كان سبباً فى هزيمة جيش بأ كمله ، لأن الله بارك ذلك الرمى وأضاف إلى ذاته المقدسة (وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى) والعجيب فى شأن ذلك الرمى أنه أمر عادى ، ليس فيه قلب حقيقة ، ولا تغيير سنة كونية ، ومع ذلك كان — بما ترتب عليه — معجزة أرقى من قلب الحقيقة ، وأعلى من تغيير السنة الـكونية .

٦ — (فضل الصدق)

عن عبد الله بن كعب بن مالك — وكان قائد أبيه كعب من بنيه حين عمى — قال : سمعت كعب بن مالك ، يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . قال كعب رضى الله عنه : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة قط إلا فى غزوة تبوك . غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحد تخلف عنه . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام . وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة . والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدواً كثيراً . فجلى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم . فأخبرهم بوجههم الذى يريدوا المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ ، يريدون بذلك الديوان . قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ، مالم ينزل فيه وحى من الله تعالى . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة ، حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغو . فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معه ، فأرجع ولم أقض شيئاً . وأقول فى نفسى : أنا قادر

على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد . فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت. ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت إذا أخرجت فى الناس ، بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء . ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك. فقال — وهو جالس فى القوم بتبوك — « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ، والنظر فى عطفيه . فقال له معاذ بن جبل رضى الله عنه : بئس ما قلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو على ذلك ، رأى رجلا مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن أبا خيثمة » فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى ، وهو الذى تصدق بصاع من التمر ، حين لمزه المنافقون[1] . قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك ، حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطه غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً ، زاح عنى الباطل . حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) يشير إلى قوله تعالى (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم) وذلك أن أبا خيثمة أتى بصاع من تمر صدقة ، فقال المنافقون إن الله لغنى عن صاع هذا ، وتصدق عبد الرحمن ابن عوف بأربعة آلاف درهم أو دينار . فقالوا : ما تصدق بها إلا رياء .

قادماً ، وكان إذا أقدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعاً وثمانين رجلا . فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، وكل سرائهم إلى الله تعالى . حتى جئت فلما سلمت ، تبسم تبسم المغضب . ثم قال « تعال » فجئت أمشي ، حتى جلست بين يديه . فقال لى « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » قلت يا رسول الله إلى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا . ولكننى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطه على . وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لأرجو فيه عقبى الله عز وجل . والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » وثار رجال من بنى مسلمة ، فاتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك ، استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوالله مازالوا يؤنبوننى ، حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكذب نفسى . ثم قلت لهم هل لقى هذا من أحد ؟ قالوا نعم ، لقيه معك رجلان . قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت : من هما ؟ قالوا مرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال ابن أمية الواقفى فذكروا لى رجلين صالحين ، قد شهدوا بدراً ، فيهما أسوة فمضيت حين ذكروا هما لى ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس أو قال : تغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك

خمسين ليلة . فأما صاحباى ، فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم . فكنت أخرج ، فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه ، بعد الصلاة . فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، وأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ،وإذا التفت نحوه ، أعرض عنى . حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة — وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ — فسلمت عليه ، فوالله ماردّ على السلام . فقلت له : ياأبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينما أناأمشى فى سوق المدينة إذ نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاءنى ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت ،كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا ، نواسك . فقلت — حين قرأتها — وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى ، إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها ، فلا تقربنها . وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم ، حتى يقضى الله من هذا الأمر . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ، ليس له

خادم . فهل تكره أن أخدمه ؟ قال « ولكن لا يقربنك » فقالت امرأته : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رجل شباب . وما يدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بذلك عشر ليال ، فكملت لنا خمسون ليلة ، من حين نهى عن كلامنا . ثم صليت صلاة الفجر ، صباح خمسين ليلة ، على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى عنا ، قد ضاقت على نفسى ، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت . وسمعت صوت صارخ أوفى على سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرج . فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبىّ[1] مبشرون . وركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم قبلى ، وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم . يتلقانى الناس فوجاً فوجا ، يهنئون بالتوبة . ويقولون : لتهنئك بتوبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد . فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، حوله الناس . فقام طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول ، حتى صافحنى وهنأنى . والله ما قام رجل

---

(١) بفتح الباء مثنى ، وهما مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

من المهاجرين غيره فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ « أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك » فقلت : من عندك يا رسول الله ؟ أم من عند الله ؟ قال « لا . بل من عند الله عز وجل » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر ، استنار وجهه ،حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه ، قلت : يارسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحسن مما أبلانى الله تعالى . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى . قال : فأنزل الله تعالى : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ـ حتى بلغ ـ إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ـ حتى بلغ ـ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال كعب والله ما أنعم الله على من نعمة قط ، بعد إذ هدانى الله للاسلام ، أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا . إن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى ، شرحا قال لأحد ، فقال الله تعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله

لا يرضى عن القوم الفاسقين) — قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة من أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا ، حتى قضى الله فيه بذلك . قال الله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذى ذكر مما خلفنا ، تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا ، عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه ، رواه الشيخان .

(المفردات)

تبوك ، بفتح التاء وضم الباء : موضع بالشام ، راحلتين ، تثنية راحلة ، والراحلة هى الناقة التى تصلح لأن ترحل أى يشد على ظهرها الرحل وهو أثاث المسافر ، ورى ، بتشديد الراء المفتوحة : أخفى الغزوة التى يريدها وأظهر غيرها ، أصفو : أميل ، وتفارط : تتابع مسرعاً ، مغموصاً عليه : معيباً عليه ، عطفية بكسر العين : جانبية ، كناية عن إعجابه بنفسه ، بثى : حزنى ، نبطى ، النبط ، بفتح النون قوم يسكنون بين العراق والشام ، سجرتها : أحرقتها ، سلع بفتح السين وسكون اللام : جبل بالمدينة .

(المعنى)

فى شهر رجب سنة تسع من الهجرة ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك لأنه بلغه أن الروم جمعوا جموعاً كثيرة بالشام ، وأنهم قدموا مقدماتها إلى البلقاء ، مدينة بالشام ، فخرج صلى الله عليه وسلم لملاقاتهم ، وسار بالناس وهم ثلاثون أو أربعون ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس . وخلف على المدينة علياً عليه السلام ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلفه إلا لاستثقاله فأخذ على سلاحه ، ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبى الله زعم المنافقون أنك ماخلفتنى إلا أنك استثقلتنى وتخففت منى ،

فقال « كذبوا ولكنني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1] » فرجع عليّ إلى المدينة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يغزو قبيلة من قبائل العرب ، يسأل عن قبيلة غيرها ، يظهر بذلك أنه يريد غزوها ، ليخفي وجهة قصده ، إلا هذه الغزوة ، فإنه أظهرها للناس ، ليستعدوا ويأخذوا أهبتهم ، لطول السفر ، وكثرة العدو ، وهم الروم الذين بلغه تجمعهم لقتاله . واستنهض همم الناس للجهاد ، وكان الوقت أول الخريف ، وقد طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، لأن زمن الخريف في الحجاز يكون حاراً . ولذا حكى الله عن المنافقين (وقالوا لا تنفروا في الحر) ، ورد عليهم بقوله تعالى (قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) وتخلف المنافقون . وقال عبد الله بن أبي — عند تخلفه — يغزو محمد بني الأصفر ، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب . والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال . واجتمع جماعة من المنافقين في بيت سويلم اليهودي ، وقال بعضهم لبعض : أتحسبون أن جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنهم — أي الصحابة — غداً مقرنون في الحبال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضي الله عنهما « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا ؟ فإن أنكروا فقل : بل قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار ، فقال لهم ذلك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعتذرون إليه ، وقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله تعالى رداً عليهم (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية . وقال النبي صلى الله

---

(١) ادعى النواصب أن هذا الحديث موضوع ، وكذبوا . بل هو في الصحيحين ، وله طرق أفردها الحافظ بن عساكر في جزء خاص .

عليه وسلم يرغب فى الجهاد ، ويحض عليه « اغزو تبوك تغنموا بنات بنى الأصفر والروم » فقال قوم من المنافقين : ائذن لنا ولا تفتنا . وقال الجد بن قيس : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأنزل الله تعالى (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا) ، والفتنة التى سقطوا فيها تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتخلف بعض المسلمين بغير عذر ، وهم أبو خيثمة وأبو ذر ، وقد لحقا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى تبوك ، وكعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية ، وهم أصحاب هذه القصة . وأقام النبى صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين ليلة ، يقصر الصلاة ولم يحصل فيها قتال . وصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم يحنّة بن روبة صاحب أيلة ، على جزية يدفعها ، وكتب له أماناً . وكذلك صالح أهل حرباء وأذرح على مائة دينار ، يدفعونها فى كل رجب ، وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم ، ثم قفل صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة .

ووقع فى هذه الغزوة أمور :

١ — فى صحيح مسلم عن أبى سعيد أو أبى هريرة ، قال : لما كانت غزوة تبوك ، أصاب الناس مجاعة ، فقالوا يا رسول الله لو أذنت لنا فنجر نانو أضحنا ، فأكلنا وأدهنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « افعلوا » فجاء عمر ، فقال : يا رسول الله ، إن فعلت قل الظهر . ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل فى ذلك البركة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم . فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالبركة . ثم قال « خذوا فى أوعيتكم » فأخذوا فى أوعيتهم ، حتى ما تركوا فى المعسكر وعاء إلا ملأوه . وأكلوا حتى شبعوا ، وفضل فضلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة » وهذه آية عظيمة ، بتكثير طعام يسير ، حتى شبع منه جيش عدده أربعون ألفاً ، وملأوا أوعيتهم ، وبقيت منه بقية . وتعددت هذه الآية فى مواضع ، منها غزوة الخندق .

٢ — روى ابن شاهين عن أنس رضى الله عنه ، قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . فقال المسلمون : يا رسول الله عطشت دوابنا وإبلنا . فقال (هل من فضلة ماء ؟) فجاء رجل فى شن بشىء من ماء ، فقال « هاتوا صحفة » فصب الماء ، ثم وضع راحته فى الماء ، قال أنس : فرأيت الصحفة تتخالل عيوناً بين أصابعه ، فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أكفيتم ؟ » قلنا : نعم يا رسول الله ، فرفع يده من الصحفة ، فارتفع الماء . وقصة نبع الماء من أصابعه الشريفة تكررت فى عدة مواطن ، ورواها جماعة من الصحابة ، ثبتت الرواية عنهم فى الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة ، تفيد التواتر ، كما قال القرطبى وغيره ؛ ونبع الماء من بين الأصابع ، أعظم من نبع الماء من الحجر حين ضربه موسى بعصاه ، لأن خروج الماء من الحجارة معهود ، وشاهدناه وشاهده غيرنا ، لكن خروج الماء من بين لحم ودم ، غير معهود ، ولذا قال بعض العلماء :

إن كان موسى سقى الأسباط من حجر
فإن فى الكف معنى ليس فى الحجر

وإنما طلب النبى صلى الله عليه وسلم فضلة ماء ، وليضع يده فيها ، تأدباً مع الله تعالى ، لأنه المنفرد بابتداع المعدومات ، وإيجادها من غير أصل ،

ولئلا يظن بعض الناس أنه المُوجِدُ للماء ، وللإشارة إلى أن الله تعالى أجرى العادة بالتسبب .

٣ — لما نزلوا تبوك ، وجدوا عينها قليلة الماء ، تبض بشيء من ماء ، مثل شراك النعل ، فغرفوا من تلك العين قليلا ، حتى اجتمع شيء فى شن ، فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه ومضمض ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، وانخرق منها ماء له حس كحس الصواعق ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ « يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً » أى بساتين ، ولا زالت العين تجرى إلى الآن ، وحولها بساتين ، كما قال صلى الله عليه وسلم .

٤ — ورد فى حديث عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : رأيت ونحن فى تبوك شعلة من نار ، فى ناحية العسكر ، فاتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يدليانه ، وهو يقول « أدليا إلىّ أخا كما » فأدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه ، قال « اللهم إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه » قال ابن مسعود ياليتنى كنت صاحب الحفرة . ذكر الحافظ السيوطى أن الشعلة التى رآها ابن مسعود ، هى ضوء شمعة ؛ ونقل عن العسكرى فى الأوائل : أن أول من أوقد الشمع جذيمة الأبرش ، وكان قبل البعثة النبوية بمدة . وألف رسالة سماها « مسامرة السموع فى ضوء الشموع » .

٥ — أهدى بعض النصارى بتبوك إلى النبى صلى الله عليه وسلم جبنة ، فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل ؛ وهذا يدل على جواز أكل جبنة النصارى ، إلا إن تحققنا أنهم أضافوا إليها شيئاً محرماً كإنفحة الخنزير ،

لكن الإمام أبا بكر الطرطوشى المالكى كان يحرمها ، وله فى تحريمها تأليف ؛ وذكروا أن من زاره[1] ونذر ألا يأكل الجبنة الرومية . قضى الله حاجته ؛ ويظهر أنه تحقق أنهم يضيفون إليها إنفحة الخنزير أو نحو ذلك ، كما هو حاصل الآن فى بعض أنواع الجبنة الرومية .

٦ — نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته — عند العودة — فأوحى الله إليه وراحلته باركة ، فقامت تجر زمامها ، فلقيها حذيفة رضى الله عنه ، فأخذ بزمامها وجاء إلى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأناخها ، ثم جلس عندها حتى قام النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتاه بها فقال : « من هذا ؟ » قلت : حذيفة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى مسر إليك سراً فلا تذكرنه إنى نهيت عن الصلاة على فلان وفلان » وعد جماعة من المنافقين . ومن ثم سمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، كان عمر رضى الله عنه إذا مات رجل ممن يظن به أنه من أولئك المنافقين ، أخذ بيد حذيفة ، فقاده إلى الصلاة عليه . فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر . وإن نزع يده من يده ، ترك الصلاة عليه .

٧ — عن أنس رضى الله عنه . قال : سمعنا — يعنى وهم فى تبوك — صوتاً يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم المرحومة المغفور لها ، المستجاب لها . فقال النبى صل الله عليه وسلم « يا أنس انظر ما هذا الصوت » قال أنس : فدخلت الجبل فإذا رجل عليه ثياب بيض ، أبيض الرأس واللحية طوله أكثر من ثلثمائة ذراع . فلما رآنى ، قال : أنت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : نعم . قال : ارجع إليه واقرأه السلام . وقل له : أخوك

---

(١) قبره بالإسكندرية معروف ، وقد زرته .

إلياس[1] يريد أن يلقاك . فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته.

---

(١) الكلام فى حياة إلياس وبقائه إلى اليوم ، كثير وشهير . نذكر بعضه ، تتميماً للفائدة . قال السعد فى شرح العقائد النفسية: ذهب العظماء من العلماء إلى أن أربعة من الأنبياء فى زمرة الأحياء : الخضر وإلياس فى الأرض، وإدريس وعيسى فى السماء . وروى الثعلبي عن عن عبد العزيز بن أبى رواد . قال : إن الخضر وإلياس يصومان شهر رمضان ببيت المقدس! ويوافيان الموسم — يعنى الحج — كل عام . وروى أيضاً عن رجل من أهل عسقلان : أنه كان يمشى بالأردن عند نصف النهار ، فرأى رجلا. فقال : يا عبد الله من أنت ؟ فقال: أنا إلياس . فقال : فوقعت على رعدة شديدة . فقلت له : ادع الله لى أن يرفع عنى ما أجد ، حتى أفهم حديثك ، وأعقل عنك . قال : فدعا لى بثمان كلمات وهن: يابر، يارحيم، ياحنان، يامنان، ياحى ، ياقيوم ، ودعوتين بالسريانية ، لم أفهمهما — قيل : هما : يا هيا ، شراهيا . فرفع الله عنى ما كنت أجد . ووضع كفه بين كتفى ، فوجدت بردها بين ثديى . فقلت له أيوحى إليك اليوم ؟ فقال : منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا ، فإنه لا يوحى إلى. فقلت له : فكم من الأنبياء اليوم أحياء ؟ قال : أربعة : اثنان فى الأرض ، واثنان فى السماء . أما اللذان فى الأرض ، فإلياس والخضر ، وأما اللذان فى السماء ، فعيسى وإدريس . قلت : كم الأبدال ؟ قال : ستون رجلا : خمسون منهم من لدن عريش مصر ، إلى شاطىء الفرات ، ورجلان بالمصيصة ، ورجلان بعسقلان ، وستة فى سائر البلدان . كلما أذهب الله واحد منهم جاء بآخر مكانه . وبهم يدفع الله عن الناس البلاء، وبهم يمطرون. قلت: فالخضر أين يكون؟ قال : فى جزائر البحر . قلت له : هل تلقاه ؟ قال نعم قلت : أين ؟ قال : بالموسم . قلت : فما يكون حديثكما ؟ قال يأخذ من شعرى ، وآخذ من شعره . قال الرجل : وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال . قلت : فما تقول فى مروان بن الحكم ؟ قال : رجل جبار عات على الله تعالى ، ، والقاتل والمقتول والشاهد فى النار . قلت: فإنى قد شهدت ، ولم أطعن برمح ، ولا رميت بسهم ، ولم أضرب بسيف . وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبداً . قال : أحسنت ، فهكذا فكن . قال : فبينما أنا وهو قاعدان ، إذا وضع بين يديه رغيفان ، أشد بياضاً من الثلج ، فأكلت أنا وهو رغيفاً وبعض الآخر ، ثم رفعت رأسى ، وقد رفع باقى الرغيف الآخر . فما رأيت أحداً وضعه ، ولا رأيت أحداً رفعه . قال : وله ناقة ترعى فى وادى الأردن ، فرفع رأسه إليها ، فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه . فركبها فقلت له : إنى أريد أن أصحبك . قال : إنك لا تقدر على صحبتى . قال :

فجاء صلى الله عليه وسلم يمشى ، وأنا معه . حتى إذا كنت منه قريباً ، تقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخرت أنا . فتحدثا طويلا ، فنزلا عليهما من السماء شىء شبه السفرة . ودعوانى فأكلت معهما قليلا ، فإذا فيها كمأة ورمان وحوت وتمر وكرفس . فلما أكلت ، قمت فتنحيت . ثم جاءت سحابة ، فاحتملته وأنا أنظر إلى بياض ثوبه فيها . رواه الحاكم فى المستدرك ، وهو حديث موضوع كما قال الحافظ ابن كثير وغيره ومما يدل على وضعه وكذبه أنه مخالف لحديث الصحيحين فى طول آدم عليه السلام . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « خلق الله آدم على صورته[1] طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق يتناقص حتى انتهى إلى ماهو عليه اليوم » فكيف يكون طول إلياس أكثر

= فقلت له : إنى خلو ، لا زوجة لى ولا عيال . قال : تزوج وإياك والنساء الأربع : الناشزة ، والمختلعة ، والملاعنة ، والبرمة . وتزوج ما بدا لك من النساء . قال : فقلت إنى أحب أن ألقاك . قال : إذا رأيتنى ، فقد لقيتنى . إنى أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان . ثم حالت بينى وبينه شجرة ، فوالله ما أدرى كيف ذهب ؟ قلت : لم يثبت حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم يفيد بقاء إلياس ، أو الخضر ، أو إدريس حياً إلى اليوم . وكل ما فى الباب عن الخضر وإلياس آثار عن بعض التابعين ، وأقوال جماعة من الصوفيين . وقد ذكر النووى أن جمهور العلماء ومعهم الصوفية على أن الخضر حى إلى اليوم . وجاء فى صحيح مسلم ، فى حديث الدجال ، فى الرجل الذى يقتله الدجال ، ثم يحييه ، ثم لا يقدر على قتله . قال الراوى لحديث الدجال : بلغنا أن هذا الرجل هو الخضر . وكذلك إلياس جاءت فيه أقوال عن كثير من العلماء والصالحين ، أنهم قابلوه وسألوه عن أشياء فأجابهم عنها . وقد قيل : إن إلياس هو إدريس عليهما السلام . أما عيسى عليه السلام فالآيات والأحاديث تفيد بقاءه حياً إلى حين نزوله ليقتل الدجال ، ثم يموت ويدفن فى الحجرة الشريفة ، بجانب عمر رضى الله عنه . انظر كتابنا « عقيدة أهل الإسلام فى نزول عيسى عليه السلام » .

(١) أى صورة آدم . يعنى أنه لم يتطور من نطفة إلى علقة مثل أولاده ، ولا تطور من قرد ، كما يزعم داروين .

من ثلثمائة ذراع ؟ والعجب من الحافظ السيوطى حيث ذكر حديث إلياس هذا فى الخصائص الكبرى ، مع التزامه أن يصونها عن الحديث الواهى والموضوع ؟!

(ما يؤخذ من القصة)

يؤخذ منها أمور :

١ — استحباب كتمان حاجة يريدها الشخص ، والتورية بغيرها . ألا ترى إلى النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد غزوة . ورى بغيرها . لأن كتمان الحاجة أدعى إلى إنجاحها ، وفى حديث ضعيف « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان » ويقول عمر رضى الله عنه : من كتم سره ملك أمره . وأيضاً إخفاء الغزو والتورية بغيره ، ضرب من المكيدة المطلوبة فى الحرب .

٢ — أن من سمع غيبة فى مسلم ، دافع عنه . فإن الرجل لما اغتاب كعب ابن مالك ، رد عليه معاذ بن جبل رضى الله عنه بقوله : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، وفى الحديث « من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

٣ — أن المسلم إذا أقدم من سفر ، يستحب له أن يبدأ بالمسجد ، فيصلى فيه ركعتين ، شكراً لله على عودته إلى أهله وبلده ، ويتأكد الإستحباب إذا كان السفر لطاعة كحج أو جهاد أو صلة رحم أو سعى فى صلح بين جماعة متخاصمين أو نحو ذلك .

٤ — أن العاصى يصح هجره ، تأديباً له ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى المسلمين عن تكليم كعب وصاحبيه ، قال الخطابى فى معالم السنن على قول كعب : ونهى رسول صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، ما نصه : فيه من العلم أن تحريم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ، إنما هو فيما

يكون بينهما من قبل عتب وموجدة ، أو لتقصير فى حقوق عشرة ونحوها ، دون ما كان من ذلك فى حق الدين . فإن هجرة أهل الأهواء والبدعة دائمة على ممر الأوقات والأزمان مالم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق اه
قلت : تفصيل مسألة الهجر : أن العاصى المجاهر بالعصية ، أو المصر على فعلها يهجر بعد نهيه وإسداء النصيحة له وكذلك المبتدع المتفق على ابتداعه ، مثل الخارجى والمعتزلى ، يهجر بعد مناقشته أيضاً ، لعله يتوب ويقلع ، أما أن يختلف شخصان فى مسألة فرعية كالتوسل وما أشبهه مما يختلف فيه الرأى وتتجاذب الأدلة ، فلا يصح الهجر بسببه ، لأنه لا عصيان فيه ولا ابتداع ، ومن هجر صاحبه بسبب ذلك ، كان آثماً عاصياً ، فإن كان المهجور قريباً له جمع إلى إثم الهجر ، ثم قطيعة الرحم ، ولا حجة فى هجر عائشة رضى الله عنها لعبد الله بن الزبير ، لأنه اجتهاد منها لم تستند فيه إلى نص ، وقد قال لها عبيد بن عمير : إن حديثاً أخبرتنيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الصرم[1] . فوق ثلاثة أيام ، فلم تقبل منه ، لكنها لم تبد دليلا على إبائها ، ونحن لا يمكننا أن نأخذ بفعل مجتهد أو قوله ، وندع حديثاً صحيحاً يخالفه .

٥ — أن توجيه الخطاب المسلمين ، لا يشمل المسلمات ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم نهى المسلمين عن تكليم كعب وصاحبيه ، وكان أزواجهم وقريباتهم يكلمنهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إليهم أن يعتزلوا نساءهم ، بعد مرور أربعين يوماً من نهى المسلمين عن تكليمهم وأذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه من غير أن يقربها .

٦ — لإمام المسلمين أن يعزر بعض العصاة ، بنهى الناس عن الكلام معه ، وقد أمر عمر رضى الله عنه بهجر صبيغ الذى كان يسأل عن مشكلات

---

(١) الصرم بضم الصاد وسكون الراء : المقاطعة والهجر .

القرآن وتشابهه فكان لا يكلمه أحد فى المدينة . أما أمر العاصى باعتزال امرأته لمدة معينة ، فلا يجوز للإمام ، وإنما هو من خصوصيات النبى صلى الله عليه وسلم[١] .

٧ — أن قول الرجل لامرأته الحقى بأهلك ، لا يكون طلاقاً إلا بقرينة تدل عليه .

٨ — استحباب سجود الشكر ، لحدوث نعمة لقول كعب : فخررت ساجداً ، وقد صح سجود الشكر من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، حين بشره جبريل عليه السلام بأن من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشراً .

٩ — أن سجود الشكر ، يصح فى وقت الكراهة ، فقد سجد كعب بعد صلاة الفجر ، قبل طلوع الشمس ، وهو وقت تكره فيه الصلاة .

١٠ — استحباب التهنئة بحدوث نعمة دينية ، فقد بشر النبى صلى الله عليه وسلم كعباً بتوبة الله عليه ، وبشره الصحابة أيضاً .

١١ — إستحباب إعطاء البشير هدية ، جزاء بشارته . فقد أعطى كعب للذى بشر بتوبة الله عليه — وهو حمزة بن عمرو الأوسى — ثوبيه .

١٢ — جواز للقيام للداخل على سبيل الإكرام والمجاملة ، فقد قام طلحة لكعب وهناه — وكان النبى صلى الله عليه وسلم آخى بينهما — ولم يصح حديث فى النهى عن القيام ، وحديث « من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » لا ينهى عن القيام ، ولكن ينهى عن حب الشخص قيام الناس له لأنه تعاظم وتكبر[٢] .

---

(١) لأن عقد النكاح يبيح للرجل الإستمتاع بزوجه ، ولا يملك أحد إيقاف مقتضيات العقد إلا الشارع .

(٢) والذين يستدلون به على تحريم القيام للشخص ، واهمون مخطئون .

١٣ — استحباب إخراج جزء من المال صدقة لله تعالى إذا حدث للمسلم فرج من شدة ، أو شفاء من مرض أو نحو ذلك .

١٤ — أنه لا يجوز التصدق بالمال كله ، فقد قال كعب : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة : إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » .

١٥— قول كعب : من عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ وجواب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « لا. بل من عند الله عز وجل » يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجتهد .

(أشكال والجواب عنه)

صح في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه « وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وفي هذا الحديث أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهجر مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وهما بدريان ، والحديث المذكور يقتضي أنهما مغفور لهما فكيف يجمع بين هذين الحديثين ؟

والجواب : أن حديث « لعل الله اطلع على أهل بدر » لا يفيد إباحة المعصية للبدريين[1]، لكنه يفيد أنه أن وقعت منهم معصية غفرها الله لهم . وهذا هو ما حصل في غزوة تبوك ، فقد غفر لهما تخلفهما . وهكذا كلما حصل من بدري معصية ، جزمنا بأن الله يغفرها له . لكن لا نجزم بغفران معصية غير البدري ، بل نرجو ونظن فقط ، والله تعالى أعلم .

---

(١) لأن الشارع لا يبيح المعصية للمكلف ، ولو بلغ نهاية درجات القرب . بل كلما ازداد قربا من الله ، يضاعف عليه إثم المعصية . اقرأ قوله تعالى ﴿يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ .

(العبرة من هذه القصة)

١ــ قد يزل بعض للفضلاء والصلحاء، مع علو رتبهم فى الفضل والصلاح كما زل كعب ابن مالك وهو عقبى، ومراره بن الربيع وهلال بن أمية ، وهما بدريان ، تحققاً بمعنى الضعف المستولى على عامة البشر ، إلا من عصم الله (وخلق الإنسان ضعيفاً) لكنهم لا يصرون على زللهم، ولا يستحسنون قبيح عملهم. بل يبادرون إلى التوبة والإستغفار ، ملتجئين إلى الله بصدق وإخلاص (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكرو الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلو وهم يعلمون) فليس الشأن ألا يعصى الإنسان ، ولكن الشأن إذ أعصى أن يسرع بالندم والإقلاع عن العصيان (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

٢ــ قد يحدث عن الشر خير ، فقد كان تخلف كعب وصاحبه عن غزوة تبوك ، وما ترتب عليه من الأمر بهجرهم . سبباً فى نزول القرآن بتوبتهم ، وشهادته لهم بصدق إلتجائهم إلى الله تعالى (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم [1] وظنو أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا) وهذا شرف كبير لهم ولذا قالو النبى صلى الله عليه وسلم لكعب فى تهنئته « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

٣ــ صدق الحديث عاقبة حميدة ، ومآل صاحبه إلى خير . كما أن عاقبة الكذب وخيمة ، ومال الكاذب فضيحة وعار . كعب وصاحباه ، صدقوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين سألهم عن سبب تخلفهم عنه . وتحملوا لوم اللائمين ، وهجر المسلمين . قال أمرهم أن طهرهم الله بالتوبة ، وأثنى عليهم

---

(١) وظنوا أى علموا . وإطلاق الظن بمعنى العلم شائع ، مثل (الأعلى الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ... إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ... وظن أنه الفراق) .

بالصدق (يا أيها الذين آمنو اتقو الله وكونو مع الصادقين) والمنافقون كذبوا حين أعتذروا وهربو من عتاب ساعة ، وموجدة شهر . فأنزل الله فضيحتهم وخزيهم على مدى الدهر (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأويهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضو عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .

٧— (نـذر)

عن ابن عباس رضى الله عنهما. قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب ، إذا هو برجل قائم . فسأل عنه ؟ فقالوا : أبو إسرائيل ، نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، وأن يصوم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « مروه فليتكلم وليستظل وليتم صومه » رواه البخارى فى صحيحه .

(المعـــنى)

النذر إلتزام عمل عباده ، تقربا إلى الله تعالى . وهو نوعان :

نذر بر ، وهو إلتزام عبادة غير موقوفة على شرط ، كما فى هذا الحديث وكقول القائل : نذرت صلاة ركعتين لله ، أو لله على أن أتصدق بدينار . ونذرلجاج ، وهوالموقوف على شرط. نحو : أن قضى الله حاجتى، فلله على صدقة. أو إن رزقنى الله مالا فلله على نذر أن أحج منه. والوفاء بالنذر بنوعيه، واجب. ومن لم يف به ، كان آثماً. وقد مدح الله تعالى الموفين به فى قوله سبحانه (يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً).

والنذر كان معروفاً عند العرب فى الجاهلية ، حيث كانوا ينذرون لأصنامهم أنواعاً من الطاعات فى زعمهم . فلما جاء الإسلام ، وأبطل عبادة الأصنام ، أبطل النذر لها . وجعله خاصاً بالله تعالى ، لأنه عبادة وهو داخل فى

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) فالنذر عقد يعقده العبد مع ربه بتقديم طاعة : إما إبتداء ، وإما بعد حصول شرط . ومن ثم كان الوفاء به ، واجباً بعموم الآية المذكورة .

(مايؤخذ من الحديث)

يؤخذ منه أمور :

١ ـــ أن النذر لا ينعقد فى الأمور العادية غير المشروعة ، كالقيام فى الشمس وعدم الإستظلال من حرها .

٢ ـــ نسخ التعبد بالصمت الذى كان مشروعاً قبلنا . فقد حكى الله عن مريم أن جبريل عليه السلام ، قال لها (فكلى وأشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحد فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسياً) يؤخذ من الآية أن الصوم عن الكلام كان مشروعاً عندهم . وفى سنين أبى داود عن على عليه السلام قال : حفظت من رسول الله صلى عليه وسلم « يتم بعد احتلام ولا صمات[1] يوم إلى الليل » قال الخطابى : كان من نسك الجاهلية الصمات ، فنهوا فى الإسلام عن ذلك ، وأمروا بالذكر والحديث بالخير . وفى صحيح البخارى عن قيس بن أبى حازم ، قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على امرأة من احمس يقال لها : زينب ، فرآها لاتتكلم ، فقال : مالها لا تتكلم ؟ فقالوا : حجت مصمته . فقال لها : تكلمى فإن هذا لايحل ، هذا من عمل الجاهلية فتكلمت . وهذا مما أتفقت فيه عادة الجاهلية

---

(١) صمات بضم الصاد . ومعنى الحديث : أنه لايجوز سكوت يوم الى الليل ، على وجه التعبد والتقرب إلى الله تعالى : والأحاديث الثابتة فى فضل السكوت ، مثل حديث الصحيحين «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » يراد بها سكوت مقيد ، وهو السكوت عن الشر . فهو المطلوب شرعا ، وفيه ثواب لمن قصده .

مع شريعة الإسرائيليين ، ويجوز أن يكون العرب أخذوه عن بعض اليهود المقيمين بالشام أو اليمن .

٣ — أن النذر إذا اشتمل على أشياء مشروعة ، وأشياء غير مشروعة ، لزم المشروع وبطل غيره . لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا إسرائيل بإتمام صومه المشروع ، وأبطل غيره .

وإذ نذر الشخص فعل معصية ، وجب عليه ترك الوفاء بالنذر . لقول النبي صلى الله عليه وسلم « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصيه » ، ولأن القصد من النذر ، التقرب إلى الله تعالى: والمعصية لا يجوز التقرب بها ، لأنها منهى عنها ، ومن نذر المعصية ، نذر ذبح خروف مثلا لولى من الأولياء ، أو نذر مبلغ من المال يضعه فى صندوق ضريحه . فلا يجب الوفاء به ، بل يجب على الناذر أن يتصدق بذلك المال المنذور على الفقراء والمساكين . وذبح الخروف أو عجل عند الضريح حرام ، لأن النسك لا يكون إلا بمكة . وإذا لم يجز النسك عند الروضة الشريفة ، فعدم جوازه عند ضريح ولى أولى[1]. فإن قال : أردت التصدق به على روح الولى : قلنا : فاذبحه فى بيتك أو إشتره مذبوحا ؟ ثم تصدق به على روح من شئت . فإن قيل : فما الفرق بين ذبح الخروف فى البيت أو فى دكان ، وبين ذبحه عند ضريح ولى ؟

قلنا : ضريح الولى يقدسه العامة ، ويقصدونه بالزيارة والتوسل ، وهو عندهم أفضل من أى[2] موضع آخر ، فالذبح عنده يكون فى معنى النسك

(١) ومن المحرم أيضاً ما جرت به العادة عند بعض المصريين أنهم يذبحون عجلا تحت نعش الميت ، وهم خارجون به إلى المقبرة .

(٢) وقد يكون الضريح فى قبلة المسجد ، فيتعمد بعض الجهال أو يستقبله فى صلاته تبركا ، ولا يدرى أن هذا يبطل صلاته .

وكذلك يطوفون به ، والطواف عبادة خاصة بالبيت الحرام . لا تجوز بغيره ، ولو قبر النبى صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : فكيف نذرت عائشة رضى الله عنها أن تهجر ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلا تكلمه أبداً ؟ قلنا : كان ذلك اجتهادا منها ؟ أخطأت فيه . لكن لا يصح تقليدها . ونحن نذكر القصة بتمامها ، ونبين وجه الصواب فيها : ثبت فى صحيح البخارى عن عوف بن مالك بن الطفيل : أن عائشة رضى الله عنها ، حدثت أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال — فى بيع أو عطاء أعطته عائشة — رضى الله عنها — : والله لتنتهين عائشة ، أو لأحجرن عليها فقالت أهو قال هذا ؟ قالوا : نعم . قالت : هو لله على نذر ألا أكلم ابن الزبير أبدا . فاستشفع إليها ابن الزبير ، حين طالت الهجرة . فقالت : لا والله لا أشفع فيه أبدا ، ولا أتحنث إلى نذرى . فلما طال ذلك على ابن الزبير ، كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود ابن عبد يغوث . وقال لهما : أنشدكما الله لما أدخلتمانى على عائشة رضى الله عنها ، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتى . فأقبل به المسور وعبد الرحمن حتى استأذنا على عائشة ، فقالا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أندخل ؟ قالت عائشة : ادخلوا . قالوا : كلنا ؟ قالت : نعم ، أدخلوا كلكم ، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير . فلما دخلوا ، دخل ابن الزبير الحجاب ، فاعتنق عائشة رضى الله عنها ، وطفق يناشدها ويبكى . وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا كلمته ، وقبلت منه . ويقولان : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عما قد علمت من الهجرة ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . فلما أكثروا عليها من التذكرة والتحريج ، طفقت تذكرهما وتبكى . وتقول : إنى نذرت ، والنذر شديد : فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير ، وأعتقت فى

نذرها ذلك ، أربعين رقبة . وكانت تذكر نذرها بعد ذلك ، فتبكى حتى تبل دموعها خمارها . فإذا تأملت هذه القصة ، وجدتها تفيد أشياء :

١ — أن عائشة رضى الله عنها لم تهجر عبد الله بن الزبير ، لمعصية اقترفها ، وإنما غضبت من اعتراضه على تصرف من تصرفاتها . وكان يمكن أن تهجره عدة أيام . حتى يهدأ غضبها ، لكنها أسرعت بنذر هجره ، لحدة كانت فيها ورثتها عن أبيها رضى الله عنهما [١] .

٢ — أن ابن الزبير صرح بأن عائشة لا يحل لها أن تنذر قطيعته . لأن قوله : والله لأحجرن عليها ، لا يستوجب ذلك .

٣ — أن المسور وعبدالرحمن قالا لها .إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الهجرة ، وأنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال . فلم تذكر لها حديثاً يخصص ما أبدياه من الدليل ، وإنما اعتذرت بالنذر . وغاب عنها : أن هذا النذر لا يجب الوفاء به ، لأنه يشتمل على قطيعة . لكنها اجتهدت وأخطأت ، فهى مأجورة على اجتهادها ، غير مؤاخذة بخطئها . ولا يصح تقليدها كما قدمنا ، لأن النص فى تحريم الهجر ثابت عام ، لا مخصص له [٢] .

(تنبيه)

من نذر نذراً مطلقاً ولم يعينه ، كأن قال : لله على نذر ، وجب عليه كفارة يمين . وهى إطعام عشرة مساكين من أوسط الطعام ، أو كسوتهم أو عتق رقبة . فإن لم يستطع ، صام ثلاثة أيام .

---

(١) كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فيه حدة معروفة .

(٢) وقد خالفها ثلاثة مجتهدون ، وهم ابن الزبير والمسور وعبد الرحمن ، وتمسكوا فى مخالفتهم بعموم النص .

٨ ـ (إختيار القائد)

عن ابى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال « أين على بن أبى طالب ؟ » فقيل : يا رسول الله ، هو يشتكى عينيه . قال « فأرسلوا إليه » فأتى به ، فبصق وسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه . ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع . فأعطاه الراية ؛ فقال على رضى الله عنه: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » رواه الشيخان .

(بيـــان المفردات)

خيبر بفتح الخاء المعجمة وسكون المثناة التحتية وفتح الموحـدة التحتية : موضع بينه وبين المدينة ثمانية برد ؛ يشتمل عل حصون ومزارع ونخل كثير . يدركون: يخوضون ؛ بوزنه ومعناه : على رسلك بكسر الراء وفتحها وسكون السين ؛ على مهلك . حمر النعم : إبل نفيسة ، من أنفس أموال العرب .

(المعنى)

كانت غزوة خيبر فى المحرم سنة سبع من الهجرة، على المشهور عند الجمهور. خرج إليها النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد رجوعه من الحديبية . واستغفر الذين شهدوا الحديبية ، يغزون معه ، وجاء المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ، يريدون

الخروج معه إلى خيبر ، رجاء الغنيمة : فقال : « لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا » وأمر منادياً ينادى بذلك ؛ ونزل قوله تعالى (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) وكان الله تعالى وعد رسوله عند منصرفه من الحديبية ــ فى سورة الفتح التى أنزلت هناك ــ مغانم ؛ بقوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) الآية ؛ وهى مغانم خيبر : وفى المسير إليها ، أشرف النـاس على واد . فرفعوا أصواتهم بالتكبير : الله اكبر الله اكبر لا إله إلا الله . فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » ولما أشرف صلى الله عليه وسلم على خيبر ، وكان صباحاً . قال لأصحابه «قفوا» ثم قال «اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشيـاطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا باسم الله» وكان صلى الله عليه وسلم، يقول هذا الدعاء لكل قرية دخلها . ولما خرج اليهود فى الصباح ، بفئوسهم ومكاتلهم ؛ رأوا النبى صلى الله عليه وسلم : قالوا : محمد والخميس ، وأدبروا هربا . فقال صلى الله عليه وسلم « الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ونزل صلى الله عليه وسلم قريباً من حصن النطاة ؛ وهو من حصون خيبر. فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به ، فلا نتكلم، وإن كان الرأى تكلمنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هو الرأى» فقال : يارسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة . ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم .

ولا نأمن من بياتهم ، يدخلون فى حمرة النخل، تحول يارسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم « أشرت بالرأى إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا » ودعا محمد بن مسلمة، فقال له « أنظر لنا منزلا بعيداً » فطاف محمد بن مسلمة رضى الله عنه . وقال : يارسول الله وجدت لك منزلا . فقال صلى الله عليه وسلم « على بركة الله » وتحول لما أمسى ، وأمر الناس بالتحول ، وبنى صلى الله عليه وسلم مسجداً هناك ، صلى فيه طول مقامه محاصراً لخيبر ، وقبل بدء القتال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت[1] » ثم ألح صلى الله عليه وسلم على حصن ناعم من حصون النطاة بالرمى ، ويهود تقاتل . والنبى صلى الله عليه وسلم على فرس يقال له : الظَّرِف[2] . وعليه درعان ومغفر وبيضة ، وفى يده قناة وترس . واستمر القتال عدة أيام ، دفع النبى صلى الله عليه وسلم خلالها اللواء لرجل من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئاً . ثم دفعه إلى آخر من المهاجرين ، فرجع ولم يصنع شيئاً . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » فبات الناس يخوضون أيهم يكون ذلك الرجل ؟ حتى قال عمر رضى الله عنه : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم . وكان على رضى الله عنه قد تخلف بالمدينة، ثم لحق بهم فى خيبر ، وكان أرمد شديد الرمد . فلما أصبحوا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن على عليه السلام ؟ فقيل له : إنه يشتكى عينيه . فقال « من يأتينى به ؟ » فذهب

---

(١) هذا مطابق لقوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

(٢) بكسر الطاء وسكون الراء ؛ الكريم من الخيل .

إليه سلمة بن الأكوع رضى الله عنه وأخــذ بيده يقوده ، حتى أتى به النبى صلى الله عليه وسلم . قد عصب عينيه فبصق فيهما ، يعنى نفث ، ودعا له ، فبرىء كأن لم يكن به وجع قط ، وأعطاه الراية ، تدعى العقاب . وكانت سوداء ، من برد لعائشة رضى الله عنها . فذهب إلى ميدان القتال ، وفتحت خيبر على يديه .

﴿ ماوقع فى غزوة خيبر ﴾

وقع فى هذه الغزوة أشياء :

١ ـ لما توجه على رضى الله عنه إلى حصن ناعم ، ركز الراية تحت الحصن . فاطلع يهودى من رأس الحصن ، فقال : من أنت ؟ قال : على بن أبى طالب . فقال اليهودى : علوتم وحق ما نزل على موسى . ثم خرج إليه أهل الحصن . وكان أول من خرج منهم إليه الحارث أخو مرحب وكان معروفاً بالشجاعة ، فثبت له على رضى الله عنه ، وتضاربا فقتله على كرم الله وجهه ، وانهزم اليهود إلى الحصن ، فخرج إليه مرحب أخو الحارث ، وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب　　شاكى السلاح بطل مجرب

فأجابه على رضى الله عنه مرتجزاً أيضاً :

أنا الذى سمتن أمى حيدرة　　كليث غابات كريه المنظره

فحمل عليه مرحب ، فضربه فطرح ترسه من يده ، فتناول على كرم الله وجهه باباً كان عند الحصن ، فتترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى قتل مرحباً بضربة سيف تلقاها مرحب بترسه ، فقدته ، وشقت المغفر والحجر الذى تحته وعمامتين ، وفلق هامته وأخذ السيف فى الأضراس . وإلى ذلك أشار بعض الأدباء بقوله ـ وأجاد :

وشادن أبصرته مقبلا　　فقلت من وجدى به مرحبا

قدَّ فؤادى فى الهوى قدة　　قد على فى الوغى مرحبا

وفتح الله حصن ناعم ، وهو أول حصن من خيبر فتح على يد على عليه السلام .

٢ — روى البيهقى فى دلائل النبوة ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما: أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمن وهو على بعض حصون خيبر ، وكان الرجل فى غنم يرعاها لأهل خيبر . فقال : يارسول الله كيف لى بالغنم ؟ قال « احصب وجوهها فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ويردها إلى أهلها » ففعل ، فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها . وهذه معجزة عظيمة ، وذلك الرجل اسمه أسلم ، وقيل : يسار ، وكان عبداً حبشياً . وبعد إسلامه انضم إلى صفوف المسلمين ، يجاهد معهم . فأتاه سهم غرب[1] فقتله ، فاستشهد ولم يسجد لله سجدة . فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه نفر من أصحابه ، فأعرض عنه. فقالوا : يارسول الله لم أعرضت عنه؟ قال (إن معه الآن زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : ترب الله وجه من ترب وجهك وقتل من قتلك) .

٣— فى صحيح مسلم عن على عليه السلام : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر . ثم أبيحت بعد ذلك ، ثم حرمت . قال الإمام الشافعى : لا أعلم شيئاً حرم ثم أبيح ثم حرم إلا المتعة . ونقل السهيلى وغيره : أنها أبيحت وحرمت ثلاث مرات ، وآخر مرة حرمت فيها المتعة ، غزوة أوطاس ، ولم تبح بعد ذلك . وثبت تحريمها فى الصحيحين، وانعقد عليه إجماع أهل السنة ، خلافاً للشيعة الإمامية . وابن عباس أباحها للضرورة ، عند الخوف من الزنا . وقيل : رجع عن ذلك .

---

(١) غرب ، بفتح الراء وإضافة سهم إليه . وبسكون الراء ، على أنه صفة لسهم . ومعناه على الوجهين : سهم لا يعرف راميه .

ووقعت فيها مناظرة بين القاضي يحيى بن أكثم ، والخليفة المأمون. ذلك أن المأمون نادى بإباحة المتعة ، فدخل عليه القاضي يحيى متغير اللون . فقال المأمون: مالى أراك متغيراً ؟ قال: لما حدث فى الإسلام . قال: وما حدث ؟قال: النداء بتحليل الزنا . قال : المتعة زنا ؟ قال : نعم ، المتعة زنا . قال : ومن أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما الكتاب . فقد قال الله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون — إلى قوله — والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة، ملك يمين ؟ قال : لا. قال : أفهى الزوجة التى عندالله ترث وتورث ويلحق بها الولد ؟ قال : لا . قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين. وأما السنة فقد روى الزهرى بسنده إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أنه قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها ، بعد أن كان أباحها . فالتفت الخليفة للحاضرين ، وقال : أتحفظون هذا من حديث الزهرى ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . فقال المأمون : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة .

٤ — ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى نيراناً توقد يوم خيبر ، قال « علام توقد هذه النيران ؟» قالوا : على الحمـــر الإنسية . قال « اكسروها – يعنى القدور – وأهرقوها » قالوا : ألا نهريقوها ونغسلها ؟ قال « اغسلوا » وأمر صلى الله عليه وسلم أبا طلحة فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية ، فإنها رجس. فأكفئت القدور، وإنها لتفور . وفى السنن لأبى داود عن خاله ابن الوليد رضى الله عنه قال :

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الأهلية والبغال والخيل . وهذا الحديث ــ وإن كان فى سنده كلام ــ يؤيده القرآن . فإن قوله تعالى فى معرض الامتنان (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) يقتضى تحريم الخيل . ولو كانت مباحة ، لامتن بأكلها . كما امتن به فى الإبل ، إلى جانب امتنانه بشرب لبنها وبركوبها . قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وقال سبحانه (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) ولهذا قال مالك بتحريم أكل الخيل، ودليله قوى راجح . وذهب الشافعى إلى إباحة أكلها ، ودليله : مارواه أبوداود بإسناد على شرط مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال ، ولم ينهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخيل . وما رواه مسلم عن أسماء رضى الله عنها قالت : نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه . قال السهيلى : وحديث الإباحة أصح ــ قلت : لكنه ليس بصريح فى الإباحة . لأن قول جابر : لم ينهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخيل ، يحتمل أموراً :

١ ــ أنه سكت عن النهى .

٢ ــ أن جابراً لم يسمع النهى الذى سمعه خالد بن الوليد ، فنفى بحسب علمه . ولم يقل : وأباح النبى صلى الله عليه وسلم الخيل .

٣ ــ أنه لم ينههم عن الخيل ، ترخيصاً لهم . لأنهم ذبحوا الحمر من جوع أصابهم ، كما ثبت فى الروايات الصحيحة . فنهاهم عنها ، لاستقذارها، وسكت عن الخيل ترخيصاً ، ليتقووا بأكلها فى غزوتهم تلك .

ويؤخذ منه أن المضطر إذا وجد محرمين أو أكثر، تناول أخفها استقذارا، أو أقلها تحريما .

وقول أسماء : نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يفيد إطلاعه على ذلك وإقراره . ألا ترى أنهم ذبحوا يوم خيبر حمراً وطبخوا لحمها ، ولم يعلم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، حتى سأل عنه . ثم إن قول أسماء ، يحكى حادثة فردية ، لم تتكرر . فيجوز أنهم ذبحوا فرساً لضرورة اقتضت ذبحه ، كما اقتضت الضرورة ذبح الحمر يوم خيبر .

٥ — فى عيون الأثر ، للحافظ الدمياطى : لما فتحت خيبر ، واطمأن الناس جعلت زينب ابنة الحارث أخى مرحب ، تسأل : أى الشاه أحب إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : الذراع . فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها[1] ، ثم عمدت إلى سم لا يلبث أن يقتل من ساعته ، فسمت الشاة وأكثرت فى الذراعين والكتف . فلما غابت الشمس ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب بالناس ، انصرف وهى جالسة عند رحله . فسأل عنها ؟ فقالت : يا أبا القاسم هدية أهديتها إليك . فأمر بها فأخذت منها ، ووضعت بين يديه صلى الله عليه وسلم وأصحابه حضور ، أو من حضر منهم ، وفيهم بشر بن البراء بن معرور رضى الله عنه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنو » فقعدوا . وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذراع ، فانتهش منها قطعة فلا كها ، ثم ألقاها . وقال للقوم « ارفعوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة » وكان بشر قد بلع اللقمة ، فلم يقم من مكانه حتى توفى . ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك اليهودية ، فقال « أسممت هذه الشاه ؟ » فقالت :

---

(١) صلتها بفتح الصاد واللام المخففة : شوتها .

من أخبرك ؟ قال «أخبرتنى هذه الذراع التى فى يدى» قالت : نعم . قال : « ماحملك على ماصنعت ؟ » قالت : قتلت أبى وعمى وزوجى ، ونلت من قومى ما نلت . فقلت : إن كان ملكا استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر . فقتلها ببشر ، رضى الله عنه . وأشار إلى هذه المعجزة ، تقى الدين السبكى فى تائيته بقوله :

وأحييت عضو الشاه بعد مماتها ... فجاء بنطق موضح للنصيحة
وقال:رسولَ رسولَ الله لاتك آكلى ... فزينت ساامتنى الهوان وسمت

وقال البوصيرى فى الهمزية :

ثم سمت له اليهودية الشا ... ة وكم سام الشقوة الأشقياء
فأذاع الذراع مافيه من سم ... بنطق أخفاؤه إبداء
وبخلق من النبى كريم ... لم تقاصص بجرحها العجماء[1]

وفى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه الذى توفى فيه « مازالت أكلة خيبر تعاودنى حتى كان هذا أوان انقطع أبهرى » والأبهر : العرق المتعلق بالقلب ، وبذلك جمع الله له بين النبوة والشهادة ، فهو صلى الله عليه وسلم نبى وشهيد .

٦ — روى أبو نعيم فى الدلائل عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر ، أصاب حماراً أسود . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ما اسمك ؟ » قال : يزيد بن شهاب ، أخرج الله من نسل جدى ستين حمارا ، كل منهم لا يركبه إلا نبى ، وقد كنت أتوقعك لتركبنى

---

(١) أى سامحها صلى الله عليه وسلم ، ولم يقتص منها لأنها سمته ، ولكن لأنها قتلت بسمها بشراً رضى الله عنه .

لأنه لم يبق من نسل جدى غيرى ، ولا من الأنبياء ، غيرك . وقد كنت قبلك لرجل يهودى ، فكنت أتعثر به عمداً . وكان يجيع بطنى ، ويضرب ظهرى . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « فأنت يعفور » فكان يبعثه إلى الرجل ، فيأتى الباب ، فيقرعه برأسه . فإذا خرج إليه صاحب الدار ، أومأ إليه : أن أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما قبض النبى صلى الله عليه وسلم، جاء إلى بير ، كانت لأبى الهيثم بن التيهان ، فتردى فيها جزعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن حبان : هذا خبر لا أصل له ، وإسناده ليس بشىء . وقال ابن الجوزى : لعن الله واضعه ، فإنه لم يقصد إلا القدح فى الإسلام ، والاستهزاء به . وقال الحافظ بن كثير : هذا شىء باطل ، لا أصل له من طريق صحيح ولا ضعيف . وسألت شيخنا المزى رحمه الله ، فقال : ليس له أصل ، وهو ضحكة ، وقد أودعه كتبهم جماعة ، منهم القاضى عياض فى الشفا ، والسهيلى فى روضه ، وكان الأولى ترك ذكره ، ووافقه الحفظ بن حجر . وقول الزرقانى فى شرح المواهب : ليس فيه ما ينكر شرعاً ، فلا بدع فى وقوعه له صلى الله عليه وسلم ، فنهايته الضعف لا الوضع اه غير صحيح ، بل الحديث واضح النكارة والبطلان ، وما ذكرته هنا إلا للتنبيه على بطلانه .

(ما يؤخذ من الحديث)

يؤخذ منه أمور :

١ — فضل على رضى الله عنه ، حيث شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بأنه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . واختصه بإعطاء الراية ، مع استشراف الصحابة لها ، ورجاء كل واحد منهم أن يكون صاحب هذه المنقبة .

٢ — أن علياً كرم الله وجهه أقوى الصحابة جسما ، وأشجعهم قلباً ،

وأعرفهم بفنون الحرب ، وأخبرهم بأصول الطعن والضرب . وإلا لما اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لفتح خيبر ، وهو يعلم أن أهلها فيهم أبطال حروب ، مثل مرحب وأخويه الحارث وياسر . وفيهم رماة ، مثل أهل حصن النطاة . حتى كان كثير من قريش ، يعتقدون أن الصحابة إذا التقوا بأهل خيبر ، فسيكون مصيرهم الهزيمة .

٣ — أن الإمام يختار للمهمة التي يريد إنجازها ، الشخص الكفء[1] لها ، القادر على القيام بها . وهذا من النصيحة الواجبة عليه ، بحيث لو ولى شخصاً عملا وفي المسلمين من هو أكفأ منه ، فإنه يكون غاشاً لهم ، كما صح في الحديث .

٤ — أن المسلم ينبغي له أن يتطلع إلى الوظائف الدينية التي يقضي بها مصلحة للإسلام والمسلمين . ألا ترى إلى قوله : فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها . وصح في رواية : أن عمر رضي الله عنه قال : فما أحببت الإمارة إلا يومئذ . وما كان منهم ذلك الرجاء إلا لأجل أن يتحقق لهم حب الله ورسوله وفتح خيبر .

٥ — حصول الفتح على يد علي كرم الله وجهه ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يدخل في باب الإخبار بالغيبيات[1] .

٦ — شفاء علي من رمده الشديد ، بنفث النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه ، وهي معجزة لا شك فيها ، ذكرها البوصيري في الهمزية بقوله :

---

(١) بفتح الكاف وكسر الفاء ، بوزن النظير ومعناه .

(١) ويدل أيضاً على أن علياً رضي الله عنه كان ميمون النقيبة ، سعيد الحظ . على نقيض ما قال ابن تيمية في منهاجه عنه : أنه كان مشئوما مخذولا . وتلك كلمة فاجرة ، تنبئ عما في قلب قائلها من حقد على وصي النبي صلى الله عليه وسلم وأخيه كرم الله وجهه .

وعلى لما تفلت بعينيه وكلتـاهما معاً رمداء
فغدا ناظراً بعيني عقاب في غزاة لها العقاب لواء

٧ — ن المسلمين لا يبدأون الـكفار بالقتال ، حتى يدعوهم إلى الإسلام ، ويبينوا لهم أحكامه ومحاسنه .

٨ — أن إسلام الكافر بالحجة والبرهان ، أفضـل من إسلامه بالسيف والسنان لقوله صـلى الله عليه وسلم : « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

٩ — ينبغى أن يكون أمير الجيش عالماً فصيحاً ، يعرف أحكام الدين ، ويبين عن أحكامه وبراهينه . ولهذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام . فقد كان أعلم الصحابة وأفصحهم.

١٠ — أن الخليفة يجب عليه أن يراعى فيمن يوليه مجرد المصلحة العامة ، ولا يراعى فيه قرابة أو صداقة . فإن النبي صلى الله عليه وسلم حين أعطى علياً الراية ، راعى فيه أمرين : حب الله ورسوله ، وقدرته على إدارة دفة الحرب ، بحيث يكون الفتح على يديه ، ولم ينظر إلى كونه ابن عمه وصهره .

٩ — (الاستهانة بالمعصية)

عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه : أن أبا بكر وعمر وناساً ، جلسوا بعد وفاة النبي صـلى الله عليه وسلم . فذكروا أعظم الـكبائر ، فلم يكن عندهم فيها علم . فأرسلونى إلى عبد الله بن عمرو أسأله ؟ فأخبرنى أن أعظم الـكبائر شرب الخمر . فأتيتهم فأخبرتهم ، فأ كبروا ذلك ، ووثبوا إليه جميعاً حتى أتوه فى داره . فأخبرهم أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، قال « إن ملكا من ملوك بنى إسرائيـل أخذ رجلا نخيره بين أن يشرب الخمر ، أو يقتل نفساً ،

أو يزنى ، أو يأكل لحم خنزير ، أو يقتلوه . فاختار الخمر . وإنه لما شرب الخمر ، لم يمتنع من شىء أرادوه منه » وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد يشربها فتقبل له صلاة أربعين ليلة ولا يموت وفى مثانته منها شىء إلا حرمت بها عليه الجنة فإن مات فى أربعين ليلة مات ميتة جاهلية » ، رواه الطبرانى بإسناد صحيح ، وصححه الحاكم على شرط مسلم .

(بيان المفردات)

وثبوا : أسرعوا ، مثانته : موضع تجمع بوله ، ميتة جاهلية : ميتة على غير سنة الإسلام .

(المعنى)

كان ملوك بنى إسرائيل — إلا القليل منهم — ظلمة ، يتبعون شهواتهم المحرمة ، ويرغمون بعض الصالحين من رعاياهم ، على تناول بعض المحرمات . ليتخذوا تناول الصالح لمحرم ، وسيلة إلى التظاهر بالمحرمات ، والإفراط فى تناولها ، وإن كان الرجل الصالح ، قد تناول ما تناوله منها بطريق الإكراه والتهديد . وأهل المعاصى والفسوق ، يشعرون بقبح عملهم ، وإزراء الناس عليهم . فيحبون مشاركة غيرهم لهم ، خصوصاً الفضلاء والصلحاء ، ويسعون فى تحقيق تلك المشاركة بطريق الإغراء تارة ، والتهديد تارة أخرى ، حتى إذا شاركهم مشارك ، خف عندهم الشعور بقبح ما هم فيه ، وهان عليهم إزراء الناس بهم ، وقد أخبرنى شخص كان يشرب الخمر ثم تاب ، أنه إذا حضر مجلس شربه زائر لا يشرب الخمر ، يضيق بحضوره . ويحاول إغراءه على مشاركته فى الشرب ، فإن أجابه استراح وانشرح صدره . وإن لم يشرب معه ظل منحرف المزاج ، شاعراً بنقص قدره عند زائره ، حتى يستأذن ويفارق

المجلس . على أساس هذه الظاهرة النفسية عند أهل الفسوق والمعاصى ، نفهم سر إكراه الملك الإسرائيلى لذلك الرجل الصالح على تناول إحدى تلك المحرمات . فإنه كان يشعر بقبح شرب الخمر وأكل الخنزير ، ومباشرة الزنا وقتل الولد الذى يكون ثمرة زناه . وأراد من الرجل الصالح أن يفعل بعض تلك الموبقات ، حتى يخف عنده وخز النفس ، ويقل تأنيب الضمير . ويظهر أن ذلك الرجل المستكره كان ضعيف الإرادة ، واهى العزم . خاف القتل ، وآثر اقتراف المعصية ، على شرف الاستشهاد فى سبيل التمسك بطاعة الله ، ونيل رضاه . فاختار شرب الخمر ، لظنه أنه أهون ما عرض عليه من الكبائر الأربعة . لكنه لما شربها فقد عقله الذى يميز به بين الحسن والقبيح ، وبين النافع والضار . وهذه هى خطورة الخمر ، تطغى على عقل شاربها ، وتفقده اتزانه وحياءه ووقاره . فيجترىء على عظائم الذنوب ، وقبائح الأمور . لا يرى فيها شيئاً يثلم دينه ، أو يجرح حياءه ووقاره . ومن هنا أقدم ذلك الإسرائيلى على تناول ما أكره عليه ، فقتل النفس وزنى وأكل لحم الخنزير . وهذه الكبائر الثلاثة أكبر من الخمر إثماً ، إذ القتل يلى الكفر ، ثم يليه الزنا ، ثم أكل الخنزير . إلا أن الخمر بما تستتبعه من المعاصى ، وبما يترتب على شربها من الموبقات . كانت أعظم الكبائر أثراً ، وسميت أم الخبائث ، لأنها تتولد عنها . فقد يزنى السكران ببعض محارمه ، وقد يطلق امرأته ثم يزنى بها أو يقتلها . بل قد تصدر عنه أقوال أو أفعال مكفرة ، والعياذ بالله تعالى . وقد يصل السكران إلى حالة تجعله مثار ضحك وسخرية . ذكر بعض العلماء : أنه كان يمر بشارع من شوارع بغداد ، فوجد سكران ملقى على الأرض بجانب كناسة ، فأتى كلب ورفع رجله ، وصار يبول . وجعل السكران

يتلقى بوله بيديه ، ويمر بهما على وجهه . ويقول للكلب : شكراً لك ، لِمَ تكلف نفسك؟ ولا غرابة فى حصول هذا وشبهه للسكران ، لأنه بفقده لعقله، يصير أشبه بالمجنون ، بل أحط من الحيوان .

(ما يؤخذ من الحديث)

يؤخذ منه أمور :

١ — أن لحم الخنزير كان محرماً على بنى إسرائيل ، كما هو محرم علينا . أما القتل والزنا والخمر ، فهى من الضروريات الخمس التى اتفقت عليها الملل .

٢ — أن من شرب الخمر ، لا تقبل صلاته فى مدى أربعين ليلة ، بعدد الجلد الذى يجب فى حدها .

٣ — أن الكبيرة تهدم عدة حسنات . ألا ترى أن شارب الخمر لا تقبل له مائتا صلاة ، هى عدة صلاة أربعين ليلة . فكيف إذا انضمت إليها كبائر أخرى ، لا شك أنها تقضى على حسناته إن لم تدركه رحمة الله وعفوه . ومن ثم جعل الشارع اجتناب الكبائر شرطاً فى تكفير الحسنات للصغائر . ففى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم : أن عابداً من بنى إسرائيل مكث يعبد الله فى صومعة ستين سنة ، فأشرف ذات يوم من الصومعة فرأى الأرض مخضرة بالنبات . وأعجبته بهجتها . فقال فى نفسه: أنزل وأمشى فى هذه الأرض ، متفكراً ومعتبراً ، فنزل يمشى ، فقابلته امرأة ، فكلمها وكلمته ، حتى غشيها . ثم ندم ، ونزل يستحم فى غدير . فمر به سائل ، فأشار له إلى رغيف على ثيابه ، فأخذه السائل وذهب . ثم مات العابد وعرض على الله . ووزنت

أعماله فرجحت تلك الزنيـة ، بعبادة ستين سنة ، ولم ينفعه إلا ذلك الرغيف الذى تصدق به . وإنما نفعته هذه الصدقة ، ورجحت على الزنا ، لأنها جاءت بعد الندم الذى هو توبة .

٤ — أن كبار الصحابة ، قد تخفى عليهم أحاديث وسنن ، توجـد عند صغارهم . فهذا الحديث كان عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، ولم يعرفه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، مع كثرة ملازمتهما للنبى صلى الله عليه وسـلم . لأنهما كانا يغيبان عن مجالس النبى صلى الله عليه وسـلم فى طلب نفقة لهما ولعيالهما ، فتفوتهما أحاديث يحضرها غيرهما . وقد اعترف عمر رضى الله عنـه بهذا . فقال فى حديث سمعه صحابى آخر ، ولم يسمعه هو : ألهانا الصفق بالأسواق .

٥ — تواضع الصحابة ، وطلبهم للعلم ممن هو أصغر منهم . لأنه قد يوجد من العلم عند الصغير ، ما ليس عند الـكبير . وإنما بعثوا إلى عبد الله ابن عمرو يسألونه ، لأنه كان يكتب ما يسمعه من الأحاديث ، وهم لا يكتبون .

(العبرة من هذه القصة)

الاستهانة بالمعصية ، وتهوين شأنها ، توقع فى التهلـكة ، وتؤدى إلى غضب الله وعقابه . فذلك الرجل الذى استكرهه الملك ، وخيره بين فعل إحدى تلك الـكبائر الأربعة ، أو القتل . استهون منها الخمر ، ورآها أقلهن إثماً . وتناولها على هذا الاعتبار ، فكان فيها حتفه ، وضياع دينه . فيجب على المسلم ألا يهون معصية ولو صغيرة ، عسى أن يكون فيها غضب الله . وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم مثلا للصغائر التى تجتمع على المسلم فتدخله النار ، بقوم مسافرين حضر صنيعهم — أى طعامهم — فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، فجمعوا حطباً أنضجوا ما قذفوه فيه . وقال العلماء : إن الله تعالى أخفى رضاه فى طاعته ، وغضبه فى معاصيه . ويقول ابن المعتز :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها هذا التقى
واصنع كما سن فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لاتحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

« تنبيه » : وقعت قصة أخرى ، تشبه هذه القصة :

روى ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم المسكر » عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اجتنبوا أم الخبائث فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس . فعلقته امرأة . فأرسلت إليه خادماً : إنا ندعوك لشهادة. فدخل فطفقت كلما دخل باباً ، أغلقته دونه . حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام، وباطية فيها خمر .فقالت: إنا لم ندعك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام ، أو تقع عليّ ، أو تشرب كأساً من الخمر . فإن أبيت ، صحت بك وفضحتك . فلما رأى أنه لا بد له من ذلك ، قال : اسقيني كأساً من الخمر ، فسقته كأساً من الخمر . فقال : زيديني . فلم يزل ، حتى وقع عليها وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر ، فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبداً . ليوشكن أحدهما يخرج صاحبه » صححه ابن حبان ، ورواه البيهقي في السنن مرفوعا وموقوفا ، وذكر أنه المحفوظ. قلت : الموقوف هنا ، له حكم المرفوع . « أم الخبائث» هي الخمر . وهو إسم شرعي لها[1] . والخبائث : المعاصي . قال الله تعالى : في وصف نبيه (ويحرم عليهم الخبائث) لأن كل معصية خبيثة ، وخبثها إما حسي أو معنوي . فالحسي كالدم والميتة ، والمعنوي كالربا ومهر البغي . وقد استدل جماعة من

---

(١) فهو حقيقة شرعية ، كالصلاة والزكاة وغيرهما من الحقائق الشرعية .

المالكية على تحريم شرب الدخان بأنه خبيث الرائحة والطعم ، فتشمله الآية المذكورة . وتكلمت على هذا الموضوع فى « خواطر دينية » وثبت فى علم الطب بطريق قطعى : أن شرب الدخان يؤدى إلى سرطان الرئة ، وهو داء خبيث ، يعسر علاجه ، بل يتعذر فى بعض الحالات .

« فعلقته » بكسر اللام : أحبته وعشقته .

« فلما رأى أنه لا بد له من ذلك » لأنها أكرهته إكراها أدبياً ، يتعلق بسمعته وشرفه . وهو يوازى الإكراه بالضرب والتعذيب ، ويزيد عليه . بل ليس إكراه الملك فى القصة السابقة لذلك الرجل بالقتل ، أشد من إكراه المرأة لهذا الرجل بفضيحته .

« فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان خمر » فى حديث آخر صحيح « من لقى الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن » والذى يتحصل من مجموع الأحاديث الصحيحة : أن شارب الخمر مرة أو مرتين ، يعاقب من الله بأمرين :

١ — يلعن ، ٢ — لا تقبل له صلاة أربعين يوماً ، فإن مات داخل الأربعين يوماً مات ميتة جاهلية .

وأن مدمن الخمر ، يعاقب بأمرين :

١ — يلقى الله كعابد وثن .

٢ — يسقيه الله من طينة الخبال ، وهى عصارة أهل النار . هذا خلاف الحد الذى أوجبه الشرع فى شربها ، وهو أربعون جلدة أو ثمانون ، على الخلاف فى ذلك بين الأئمة .

(حِكَم لطيفة)

يقال : إن إبليس لعنه الله ظهر لفرعون فى صورة رجل وهو فى الحمام

فأنكره. فقال له إبليس : ويحك أما تعرفنى ؟ فقال : لا . قال : فكيف ؟ وأنت خلقتنى ؟! ألست القائل : أنا ربكم الأعلى ؟ ! !

وظهر إبليس لسليمان عليه السلام ، فسأله : أى الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى ؟ فقال : لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك ، إنى لست أعلم شيئاً أحب إلىّ ، وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل[1] ، والمرأة بالمرأة .

وكان شخص يلعن إبليس كل يوم ألف مرة ، فبينما هو ذات يوم نائم ، أتاه شخص وأيقظه ، وقال له : قم فإن الجدار سيسقط عليك . فقال له : من أنت الذى أشفقت علىّ هذه الشفقة ؟ فقال له : أنا إبليس . فقال له : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة ؟ فقال : هذا لما علمت من منزلة الشهداء عند الله تعالى ، فخشيت أن تكون منهم ، فتنال معهم كما ينالون[2] . ويأتى سؤال ، هو : هل الاشتغال بلعن إبليس ألف أو ألفين يثاب عليه ؟ والجواب :

---

(١) إستغناء الرجل بالرجل هو اللواط، واستغناء المرأة بالمرأة، هى المساحقة ولكونهما شذوذ عن الطبيعة ، كانا أحب إلى إبليس .

(٢) قرأت فى ترجمة عبد الله بن هلال أحد الرواة المجروحين: أنه كان يمشى فى بعض طرق البصرة ، ورجل يحمل زق عسل ، فتزحلقت رجله ووقع ، وسال العسل على الأرض فجعل الصبيان الذين كانوا يلعبون فى الطريق ، يأخذون العسل بأيديهم من الأرض ويلحسونه ، ويقولون: لعن الله الشيطان . فقال لهم عبد الله : لم تلعنون الشيطان وهو الذى كان السبب فى أكلكم العسل بزحلقة الرجل، فكفوا عن لعنه . فظهر له الشيطان، وقال له: حيث أنك منعت عنى لعن الصبيان ، فإنى مكافئك . واتفق معه على أن يصرع بنات الأغنياء . ويذهب ابن هلال لعالجتهن . فإذا دخل على البنت المصروعة ، وقرأ بعض العزائم والتعاويذ ، تركها الشيطان وبرئت . فجمع من ذلك مالا كثيراً . وقرأت فى ترجمته أيضاً: أنه لما ذهب إلى الحجاز ، كان يجمع العقارب ، ويطلقها فى الحرم ، لتلدغ المصلين والعاكفين والطائفين . وكان ابن هلال هذا ، يسمى صديق الشيطان .

ذكر الغزالى : أن الإنســان لو لم يلعن إبليس طول حياته ، لم يسأله الله يوم القيــامة لِم لم يلعن إبليس ؟ وذلك . لأن اللعن ليس بعبادة يتقرب بها إلى الله ، كالتسبيح والتحميد ، لــكنه دعاء بالإبعاد من رحمة الله تعالى ، فغايته أن يكون الدعاء به على من يستحق جائزاً .

١٠ — (أخلاق اليهود)

قال وهب بن منبه : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض فصــحبه يهودى. وكان معه رغيفان ، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى: تشاركنى فى طعامك ؟ قال اليهودى : نعم . فلما علم أن ليس مع عيسى إلا رغيف واحد ، ندم . فقام عيسى إلى الصــلاة ، فذهب صاحبه وأكل رغيفاً . فلما أتم عيسى صلاته ، قدما طعامهما . فقال لصــاحبه : أين الرغيف الآخر ؟ فقال ما كان إلا رغيف واحــد . فأكل عيسى رغيفاً وصاحبه رغيفاً . ثم انطلقا ، فجاءوا إلى شجرة . فقال عيسى لصاحبه : لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة ، حتى نصبح . فقال : افعل ، فباتا . ثم أصبحا منطلقين ، فلقيا أعمى ، فقال له : أرأيت إن أنا عالجتك حتى يرد الله بصرك ، فهل تشكره ؟ قال : نعم ، فمس بصره ، ودعا الله له فأبصر . فقال عيسى لليهودى : بالذى أراك الأعمى يبصر ، أما كان معك من رغيف ؟ فقال : والله ما كان إلا رغيف واحد . فسكت عيسى عنه . ومرا فإذا هما بمقعد . فقال له عيسى : أرأيت إن عالجتك ، فعافاك الله . فهل تشكره؟ قال : نعم . فدعا الله تعالى عيسى ، فإذا هو صحيــح قائم على رجليه . فقال صاحب عيسى : ما رأيت مثل هذا قط . فقال له عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيراً ، والمقعد صحيحاً . من صاحب الرغيف الثالث ؟ فحلف له : ما كان معه إلا رغيف واحد . فسكت عيسى عنه ، فانطلقا حتى انتهيا الى نهر عجاج . فقال عيسى : لا أرى جسراً ولا سفينة ، فخذ بحجزتى من ورائى ، وضــع قدمك

موضع قدمى . ففعل فمشـيا على الماء ، فقال له عيسى : بالذى أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك المـاء ، من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : لا والله ما كان إلا رغيف واحد . فسكت عيسى ، ثم انطلقا فإذا هما بظباء ترعى . فدعا عيسى بظبى فذبحه وشوى منه بعضه ، وأكلاه . ثم ضرب عيسى بقية الظبى ، وقال : قم بإذن الله عز وجل : فإذا الظبى يعدو ، فقال اليهودى : سبحان الله ! فقال عيسى : بالذى أراك هـذه الآية ، من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كان إلا رغيف واحد . فمرا بصاحب بقر ، فقال عيسى : يا صاحب البقر ، اجزر لنا من بقرك هذه عجلا . فقال : ابعث صاحبك اليهودى يأخذه . فانطلق اليهودى ، فجاء به وذبحـه وشواه ، وصاحب البقر ينظر إليه . فقال عيسى : كل ولا تكسر عظما . فلمـا فرغا ، قذف بعظامه فى جلده ، ثم ضربه بعصاه ، وقال له : قم بإذن الله ، فقام العجل وله خوار . فقال له عيسى : يا صاحب البقر ، خـذ عجلك . قال ويحـك من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم . قال : عيسى السحار ؟ ثم فر منه . فقال عيسى لصاحبه : كم كان معك من رغيف ؟ فقال : ما كان معى إلا رغيف واحد . فسكت عيسى ومضـيا ، حتى دخلا قرية . فنزل عيسى فى أسفلها ، واليهودى فى أعـلاها . فأخذ اليهودى عصا عيسى ، وقال : أنا الآن أبرىء المرضى وأحيى الموتى . وكان ملك تلك القرية مريضاً مدنفاً ، فانطلق اليهودى ، ونادى : من يبتغى طبيباً ؟ حتى أتى باب الملك ، فأخبروه بوجعه . فقال : أدخلونى عليه ، فأنا أبرئه ، وإن رأيتموه قد مات ، فأنا أحييه . فقيل له : إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه ، إلا صلبه . فقال : أدخلونى عليه ، فأدخل عليه . فضرب الملك بعصاه ، فمـات . فجعل يضرب الملك بالعصا ، وهو ميت ، ويقول : قم

بإذن الله ، فلم يقم ، فأخذ ليصلب . فبلغ ذلك عيسى ، فمر عليه وقد رفع على الخشبة فقال لهم عيسى : أرأيتم لو أحييت لكم الملك ، هل تتركون لى صاحبى؟ قالوا : نعم ، فدعا الله عز وجل فأحياه وقام . فأنزل اليهودى من الخشبة . فقال لعيسى : أنت أعظم النــاس على منة ، والله لا أفارقك أبداً . فقال له عيسى : أنشدك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعد ما أكلناهما وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من على الجذع بعد ما صـلبك . كم كان معك من رغيف ؟ فحلف بهذا كله ، وقال : والله ما كان معى إلا رغيف واحد . فقال عيسى : لا بأس. فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة ، وهى خربة . فيها كنز ثلاث لبنات من ذهب ، قد كشفتها الدواب والسباع . فقال الرجل لعيسى : هذا المال لك؟ فقال عيسى : أجل ، واحدة لك ، وواحدة لى ، وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث ، فقال اليهودى لعيسى : أنا صاحب الرغيف الثالث ، أكلته وأنت تصلى . فقال عيسى : هى لك كلها. فانطلق عيسى وتركه ينظر ، وهو لا يستطيع أن يحمل منهن واحدة ، لثقلها عليه . فقال له عيسى : دعه إن له أهلا ، يهلكون عليه . فجعلت نفس اليهودى تتطلع إلى المال ، ويكره أن يعصى عيسى ، ويعجزه حمل المال . فمشى مع عيسى ، فبينما هو كذلك ، مر بالمال ثلاثة نفر يهود . فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث : انطلق إلى بعض القرى ، فائتنا بطعام وشراب ودواب ، نحمل عليها هذا المال . فلما ذهب صاحبهما ، قال أحدهما للآخر : هل لك أن نقتله إذا رجع ، ونقتسم المال بيننا ؟ قال : نعم . وقال الذى ذهب — فى نفسه — : اجعل لهما فى الطعــام سماً ، فإذا أكلاه ، ماتا ويصير المال كله لى . ففعل ذلك ، فلما رجع إليهما ، قتلاه . ثم أكلا الطعام الذى جاء به ، فماتا . وإن عيسى عليه السلام ، مر بهم وهم حوله مقتولون .

فقال : لا إله إلا الله ، هكذا تصنع الدنيا بأهلها . ثم إن عيسى دعا الله تعالى فأحياهم . فاعتبروا وصروا ، ولم يأخذوا من المال شيئاً . فتطلعت نفس اليهودى صاحب عيسى إلى المال ، فقال : أعطنى المال . قال عيسى : خذه لك ، فهو حظك فى الدنيا والآخرة . فلما ذهب ليحمله ، خسف به فى الأرض .

هذه القصة تكشف عن أخلاق اليهود الذميمة ، سجلها القرآن الكريم فى عدة آيات ، فى مناسبة كلامه عن اليهود :

١ — قسوة القلب . فهذا اليهودى شاهد من عيسى عليه السلام آيات يلين لها الصخر . وأصر مع ذلك على الكذب ، وتأييده باليمين . وقد حكى الله تعالى فى سورة البقرة قصة القتيل الذى تدارءوا فيه ، وما أوحى إلى موسى فى شأنه . ثم قال (كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون . ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) المذكور من الآيات التى رأيتموها (فهى) أى قلوبكم فى قسوتها (كالحجارة أو أشد قسوة) منها . ثم بين زيادة قلوبهم فى القسوة على الحجارة بقوله تعالى : (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) فقسوة القلوب عريقة فى اليهود ، لازمة لهم لزوم الظل للشاخص .

٢ ، ٣ — الكذب والحلف عليه . فهذا اليهودى كذب على عيسى فى الرغيف الذى أكله ، وأيد كذبه بالحلف عليه ، وهو خلق أصيل فى اليهود . فقد قال الله تعالى فى شأنهم (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) فالذين يكذبون على الله

فى كتابه ، وينسبون إليه مالم يوح به ، ويحلفون على كذبهم ، ليحصلوا بذلك على قليل من حطام الدنيا ، يهون عليهم أن يكذبوا فى شيء هين كرغيف ، لأنهم فقدوا رادعاً من خشية الله ، ووازعاً من الضمير الحى . وسلوكهم مع أنبيائهم ، سلسلة مخالفات واعتداءات . نجاهم الله من فرعون الذى أذاقهم العذاب الأليم . فأغرقه ، وفرق لهم البحر حتى جاوزوه . ثم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم . فنسوا نعمة الله عليهم و (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) وذهب موسى لمناجاة الله ، وترك هارون خليفة عليهم . فأضلهم السامرى بالعجل الذى أخرجه لهم (فقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى) ونهاهم هارون فقالوا له (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) ثم لما ذهبوا مع موسى للاعتذار والتوبة من عبادة العجل. وسمعوا كلام الله لموسى ، قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الصاعقة جزاء جراءتهم . وأمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، فجبنوا عن مقاتلة الجبارين ، وقالوا (يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) وأتاهم موسى بالتوراة ، فأبوا قبول أحكامها ، حتى رفع الله الجبل فوقهم وهدد بإسقاطه عليهم (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة) .

وأخذ عليهم العهد بأن يبينوا أحكام التوراة وألا يكتموها ، فنبذوا العهد ، وكتموا ما أرادوا كتمانه ، وأخذوا على ما بينوه منها أجراً . (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء

ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون ... إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) .

وقد حرم الله سبحانه وتعالى عليهم مباشرة الأعمال يوم السبت ، وجعله لهم عيداً يتفرغون فيه للعبادة . فخالفوا أمر الله ، واحتالوا لصيد السمك الذى كان محرماً صيده فى ذلك اليوم . بحفرهم حياضاً جانب البحر ، ليدخل فيها السمك مع مد البحر . فإذا جزر ، انحسر عنه الماء ، فيبقى السمك فى تلك الحياض محبوساً . فيأخذونه ويأكلونه .

ولأجل ذلك مسخهم الله قردة . قال تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ... واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) .

ولم يكتفوا بهذا ، وبغيره من الموبقات : كأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل . وموافقتهم على فعل المنكرات ، من غير أن يتحرك أحد منهم للنهى عنها . حتى غضب الله عليهم ولعنهم ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، فلزمتهم لزوم النعت للمنعوت . بل ترقوا فى كفرهم إلى أن رموا الله تعالى بنقائص يتنزه عنها ، لأنها تنافى كماله المطلق سبحانه وتعالى .

فرموه بالفقر (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء

سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد)[١] .

ورموه بالبخل (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان[٢] ينفق كيف يشاء) .

ونسبوا إليه الولد (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

وقالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها الأحد وآخرها الجمعة . ثم استراح يوم السبت ، واستلقى على العرش . فأنزل الله رداً عليهم (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) اللغوب : التعب . قال الزمخشرى فى الكشاف : وقالوا – يعنى العلماء – : إن الذى وقع من التشبيه فى هذه الأمة ، إنما وقع من اليهود[٣] ، ومنهم أخذ . مما تقدم ، نرى أن القرآن الكريم يصور حياة شعب بنى اسرائيل أدق

---

(١) لما نزل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) قال اليهود : الله فقير لأنه يقترض منا . ونحن أغنياء نقرضه ، فأنزل الله تعالى يرد عليهم بهذه الآية .

(٢) أصاب اليهود قحط فى زراعتهم ، فقالوا (يد الله مغلولة) يعنون أنه بخيل، لعنهم الله . وقوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) هذه الجملة تثبت كرم الله المطلق ، على سبيل الاستعارة التمثيلية المعروفة فى علم البيان .

(٣) من قرأ « التلمود » يجد اليهود يصفون الله تعالى فيه بالندم والبكاء والحزن والخطأ والخطيئة واللعب والرقص ، وأنه فى بكائه يزأر كالأسد . وأن جسمه كان ملء السموات والأرض فى جميع الأزمان ، فلما هدم الهيكل بأورشليم . صار يشغل مساحة أربعة سنوات فقط ، إلى غير ذلك من الكفريات الصارخة . قاتلهم الله (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

تصوير ، كاشفاً عن خلجات نفوسهم ، معبراً عن طبائعهم ومعاملتهم لرسلهم ، ومعاملة بعضهم لبعض .

وهذه شهادة رجل منهم ، كان رئيساً لهم ، ومن أكابر أحبارهم . قد عاشرهم ووقف على أسرارهم ، وعرف دخائلهم ، وهو عبد الله بن سلام . فقد صارح الرسول صلى الله عليه وسلم بحقيقة أمرهم ، وأنهم قوم متقلبون متلونون ، لا يؤمنون بالحق ولا يحبونه . ولا يركن إليهم ، ولا يوثق بهم ولا بأقوالهم . ثم قال : وإذا أردت أن تعرف صدق قولى ، فإليك الدليل : لقد عرفنا بعثتك مما جاء فى التوراة عن صفتك واسمك وزمانك ، ولما علمت بقدومك ، أسلمت أنا وأهل بيتى ، وعمتى خالدة بنت الحارث . ثم كتمت إسلامى من اليهود . لما أعرفه عنهم من بهتهم — أى أهل باطل — وهأنذا قد جئتك لأعلن إسلامى ، وإنى أريد أن تخفينى فى أحد بيوتك عنهم ثم تسألهم عنى حتى إذا أخبروك : كيف أنا فيهم ؟ خرجت إليهم وأعلنت لهم إسلامى . وسترى ما يبهتونى به ، وما يعيبونه على . فأخفاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودعا اليهود . فسألهم عن عبد الله بن سلام ؟ وكيف حالته فيهم ؟ فأثنوا عليه خيراً ، وقالوا : إنه سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، وعالمنا وابن عالمنا . فقال « أرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا : أعاذه الله من ذلك . فخرج عليهم عبد الله بن سلام فقال : أشهد أن لا إله الله وأشهد أن محمداً رسول الله . يامعشر اليهود اتقوا الله وآمنوا بما جاء به محمد، فو الله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته . فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه . فقالوا له كذبت أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه . فقال : يارسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهت ؟ فأنزل الله تعالى فى تلك

الحادثة (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل[1] على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

آخر كتاب سمير الصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض « إنه من أهل الجنة » إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزل (وشهد شاهد من بنى إسرائيل) وروى ابن أبى شيبة عن الشعبى أنه أنكر ذلك ، لأن السورة مكية ، وعبد الله أسلم بالمدينة بعد الهجرة . وأخرج ابن أبى حاتم مثله عن مسروق ، وهذا قول ضعيف . لأن كثيراً من السور المكية ، ألحقت بها آيات مدنية . وكذلك توجد سور مدنية، ألحقت بها آيات مكية. كما هو معروف ، لمن درس علوم القرآن وقد أخرج الطبرانى بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعى: أن هذه الآية نزلت بالمدينة فى قصة إسلام عبد الله بن سلام . ثم لا يخفى عليك أنه من تمام إعجاز القرآن أن توجد آية مدنية فى سورة مكية ، أو آية مكية فى سورة مدنية . تنتظم مع آياتها فى سياق متناسب ، كأنهما نزلتا فى مكان واحد ، وموضوع واحد . هـذا ولا يفوتنى أن أشير إلى بعض جهلة المعاصرين الذى اتهم عبد الله بن سلام بأنه إنما أسلم ليفسد الإسلام ، ويثير بين أهله الدسائس وهى تهمة باطلة من أساسها ، يؤكد بطلانها أن النبى صلى الله عليه وسلم شهد له بالجنة . مع أنه قال عن رجل أبلى فى غزوة أحد بلاء حسنا « إنه من أهل النار » فانتحر آخر الأمر . وأسر إلى حذيفة بتعيين جماعة من المنافقين ، كانوا فى جملة المسلمين يصلون معهم ويصومون ويجاهدون. فالذى أطلعه على هؤلاء ، كيف لم يطلعه على حال عبد الله بن سلام ؟ حتى جاء هذا الجاهل فى آخر الزمان ، فاكتشف لذكائه الخارق ، من حال صحابى مالم يعرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا ما أقبح الغرور مع الجهل !

محتويات الكتاب

مطابع سجل العرب